نحو خطةٍ لإنجاز القاموس العربي التاريخي
في ضوء التَّجربة الفرنسية

أ.د. عبد العلي الودغيري
جامعة محمد الخامس ـ الرباط

- 1 -

في البداية لا بد من تأكيد معلومة واضحة، وهي أنه لا توجَدُ وصفةٌ جاهزةٌ أو طريقةُ استعمالٍ واحدةٌ صالحةٌ في كل حالٍ لإنجاز أيِّ قاموس تاريخيّ لأيّة لغة من اللغات. والسببُ بسيطٌ وواضحٌ أيضاً، وهو أنه لا يوجد هنالك نوعٌ واحد من القواميس التاريخيّة أو صيغةٌ موحَّدة لها، وإنما هي أنواعٌ يختلفُ بعضُها عن بعض في أمور كثيرة : في حجم مدوَّنتها وكيفيّة تَكوينِها ومصادرها وعدد مداخلها، وفي نوعيّة الألفاظ والمداخل المؤرَّخ لها، وفي الفترة الزمنية المُراد التأريخ لألفاظها، وفي طريقة التأريخ لهذه الألفاظ، وتعريفها وترتيبها، ونوعِ المعلومات المطلوبةِ وقَدرِها وطريقةِ صياغَتِها وتَنسيقِها. وليس هذا فقط، بل هناك تفاصيل أخرى لا بد من معرفتها القَبلية كمعرفة الهدَف من تأليف هذا القاموس أو ذلك، ومعرفة جمهور القراء، الذين يُوَجَّه إليهم، ومُستواهم المعرفي والعلمي، وتحديد مقدار حاجَتهم ومَدى استفادتهم من هذا النوع أو ذاك، إلى غير ذلك من الأمور التي تتحكَّم في تحديد التصوُّرات الخاصة بكل قاموس.

إذن، تحديدُ الخطة المُناسِبة لإنجاز أيِّ قاموسِ تاريخيّ لأيّة لغةٍ من اللغات، معناه: تحديدُ نوع هذا القاموس الذي يُرادُ صُنعُه بكلِّ ما يُطلَبُ فيه من مُواصفاتٍ وما يَرميه من أهدافٍ. وإذا كان «***وضع قاموس يؤرِّخ لمعجَم اللغة***

العربيّة»، هو الهدف العام الذي لا نختلف عليه، نحن الذين تجمعُنا الرغبةُ في أن يكون للعربية قاموسٌ على هذا النحو أو ذاك مما يوجَد في عدد من اللغات الأخرى، فإن ذلك وحده لا يكفي لرسم ملامح هذا القاموس الذي نريده ولا لمعرفةِ شكله وتحديدِ مُواصفاته ونوعيَّته وحَجمه ومضمونه ومادته المعجميّة وكيفية بنائه وصياغته. إذ نحن أمام موضوعٍ واسِعٍ وعنوانٍ فَضفاضٍ يحتاجُ إلى زيادة تدقيقٍ وتوضيح، ولاسيما أن الأمر يتعلق بمعجم لغةٍ هي وِعاءُ حضارةٍ من أكبر حضارات البشرية تَجرِبةً وغِنىً وثَراءً وعُمقاً تاريخيّاً وامتداداً جُغرافياً وغَزارةَ تُراثٍ وعلمٍ وثقافةٍ. وهذا وحدَه يُشكِّل عِبئاً كبيراً لا يُقارَنُ بالأعباء التي يتحمَّلُها مَن ينهضُ بإنجاز أيِّ قاموسٍ آخر من بقيّة القواميس المُؤرِّخة للُّغات ذاتِ الأعمارِ القصيرة والتجارِب المحدودة.

لكن هذا الذي قُلناهُ عن اختلاف القواميس والخُطط، لا يعني أن كلَّ القواميس التاريخية الموجودة أو المُمكِنة، ليس بينها إلا صلةُ الاختلاف. بل الحقيقةُ هي أن كلَّ القواميس التاريخيّة، لكي تدخل تحت هذا الوصف، لا بدَّ أن تكون لها أيضاً نُقَطُ التقاءٍ في أرضية مُشترَكة، أي: قَدرٌ من العناصر التي تجمَعُها تحت عنوانٍ واحدٍ. وبعد هذا الجِذع المُشترَك تظلُّ هنالك مساحةٌ واسِعةٌ للتبايُن والاختلاف اللذين من أجلهما تتفرَّعُ الأنواعُ.

وما نَعنيه بالجِذع المُشترَك، هو كلُّ ما يدخل تحت تعريف «القاموس التاريخيّ للغة» من عناصر، بعضُها يُعتبرُ جزءاً من المُكِّونات الأساسية لمفهوم مصطلح «قاموس» (من مدونة وترتيب وتعريف)، وبعضُها يُعتبرُ جُزءاً من مكوِّنات مصطلح «تأريخ». ورغم أن مفهوم « التأريخ» نفسه ليس من المفاهيم المُحدَّدة بدِقَّةٍ بين أصحاب الاختصاص، كما سنرى، إلا أن كلّ عملٍ حقَّقَ الحدَّ الأدنى من عناصر ذلك المفهوم، اعتُبِرَ داخلاً تحت عنوان: القاموس التاريخيّ.

أما المُختلَفُ فيه، مما تجاوزَ سَقفَ هذا القاسِمِ المُشتركُ، فهو عبارةٌ عن تجارِب واجتهاداتٍ تختلفُ ـ في درجات نُضجِها واكتِمالها ـ باختلاف نظَر

أصحابها من مؤرِّخي معاجم اللغات. ولنَقِف لحظةً عند التجربة الفرنسيّة على سبيل المثال، لنلاحظَ أن النماذِج التي يُمكنُ إدراجُها تحت عنوان «القاموس التاريخيّ» كثيرةٌ لكنها غيرُ متساويّة ولا مُتكافِئة في قيمتها ودرجةِ نُضجها وتطوُّرها. ويمكنُنا أن نعتبر أن الحلَقةَ الأولى في سلسلة القواميس التاريخية الفرنسية هي تلك المُتمثِّلةً في كتاب جيل ميناج Gilles Ménage الذي طبع سنة 1650م بعنوان *:«أصول اللغة الفرنسية*: Les origines de la langue française)، ثم طُبِع سنة 1694م (عامَين بعد وفاة صاحبه) ضمن مجموع يحمل عنوانَ: *«القاموس الإيتيمولوجيّ أو أصول اللغة الفرنسيّة*: Dictionnaire étymologique ou Origines de la langue française». وفيه حاول المؤلفُ أن يبحث عن أصول الكلمات الفرنسية بإرجاعها إلى اللاتينية الشعبية واليونانيّة ومختلف اللغات الرومانسيّة واللهجات الإقليميّة. فحين ذكر كلمة abricots على سبيل المثال ـ وقد أوردها بهذه الصيغة على طريقة الجَمع ـ بحَثَ عن أصلها في اليونانية ومنها أخذَتها العربيةُ التي أعارَتها بدورها للإسبانية، ومن هذه الأخيرة أخذَتها الفرنسيّةُ، وعن الفرنسيّة استعارَتها الإنجليزيّةُ. وتتبَّعَ صيغَها المختلفة في كل هذه اللغات. ومن المعلوم أن البحث في الأصول الاشتقاقية والتأثيلية (الإيتيمولوجية) للألفاظ (ويدخل تحته مقارنةُ هذه الألفاظ بألفاظ لغاتٍ أخرى ذاتِ علاقةٍ)، هو عُنصُرٌ أساسيٌّ من العناصر المُكوِّنة لمفهوم «التأريخ المعجميّ». ولقد اعترفَ المعجميّون المتأخِّرون بقيمة العمل الذي قدَّمه ميناج في هذا الجانب، ونوَّهُوا به كثيرًا. وفي مقدمة هؤلاء اللغويُّ الفرنسيُّ الشهير أوسكار بلوخ الذي شهد له بالفضل، فقال في جملة ما قاله عنه: «لقد قدَّم حول التاريخ الخاصِّ لعدد من الكلمات معلوماتٍ ثمينةً ربما تمَّ إهمالُ الكثير منها بحُكم القصور في معلوماتنا. ولذلك قُمنا نحن، في مواضعَ كثيرة من كتابنا هذا، بالتَّنويه مراراً بكل ما له فضلٌ فيه»[1].

1 – من مقدمة بلوخ (Oscar Bloch) لقاموسه: Dictionnaire étymologique de la langue française

وبعد هذا الكتاب كانت هنالك قواميسُ فرنسيةٌ تَأثيليةٌ كثيرة[2]، لكن يهمنا أن نقف عند محاولة مُتَميِّزة في القرن الثامن عشر الميلادي جاءت على يد أحد اللغويّين المشهورين في ذلك الوقت وهو : ج. ب. لاكورن دي سانت بالاي J.B. La Curne de Sainte Palaye (ت1781م) صاحبُ القاموس المعروف باسم: (*القاموس التاريخيّ للفرنسيّة القديمة*: Dictionnaire historique de l'ancien français) الذي تأخَّرَ طبعُه إلى سنة 1876م، أي مدةً تقرُب من قرنٍ بعد وفاة صاحبه. ومع أن هذا الكتاب الذي يُعتبَر أولَ قاموسٍ فرنسيّ تظهَر في عنوانه عبارةُ «قاموس تاريخيّ»، لم يؤرِّخ للألفاظ بذكر سنواتِ ظهورها أو مراحلِ تطوُّرها، إلا أنه فعَلَ ما يُشبه ذلك بحِرصه على ذكر أقدم المصادر والمؤلَّفات التي أوردَت اللفظَ، والإتيانِ بالشواهدِ النَّصيّة المنسوبة لأصحابها التي تُثبِتُ الفترةَ التقريبيّة لاستعمال هذا اللفظ أو ذاك في اللغة الفرنسيّة. هذا إلى جانب اهتمامه بذكر الصيَغ المختلفة التي وردَت لكل لفظٍ من الألفاظ وأصولِها الاشتقاقيّة. وهذه العناصرُ كلُّها هي التي أعطت قيمةً كبيرةً للكتاب، فأصبح مصدراً أساسياً من المصادر التي اعتمدَها وعوَّلَ عليها مَن جاء بعدَه من المعجميّين الفرنسيّين.

أما القرنُ التاسِع عشر الميلاديّ، الذي كانَ بحقٍّ «قرنَ القواميس» كما قال بيرُ لاروسُ[3]. فقد ازدهرَت فيه الصناعةُ القاموسيّةُ بصفة عامةٍ ازدهاراً لا مثيلَ له[4]، ولاسيما في فرنسا التي كانت تَعيشُ أوجَ ثورتها في كل المجالات، ومنها

---

2 – ومن أقدمها كتابٌ ظهرَ في حياة جيل ميناج (أي سنة 1661م) بعنوان: L'Étymologie de plusieurs mots Français لصاحبه الأب فيليب لاب Philippe Labbe (ت 1666 أو 1667م).

3 – ذكر ذلك في مقدمة قاموسه الموسوعيّ الصادر ما بين 1866 و1876م بعنوان : Dictionnaire universel du 19ème siècle. وراجع : Jean Pruvost في كتابه : les dictionnaires de la langue française ص 3 .

4 – ذكر اللغوي الفرنسي الشهير بيرنار كيمادا في أطروحته التي نشرها سنة 1968م بعنوان : Dictionnaire du Français moderne (1539 – 1863)، أنه خلال المدة الفاصلة ما بين ظهور قاموس Dictionnaire français- latin الصادر سنة 1539 من تأليف Robert Estienne وصدور الجزء الأول من قاموس إميل ليطري Dictionnaire de la langue française سنة 1863م، ظهر بفرنسا حوالي ثلاثة آلاف عنوان أصلي من عناوين القواميس المختلفة . راجع: كتاب جون بروفُست (ص: 4) المذكور في الهامش السابق.

المجال اللغويّ[5] والمعجميّ، وفيه أصبح «موضوعُ القاموس التاريخيِّ مَحَلَّ اهتمامٍ كبير لدى الرأي العام »[6]، ليس في فرنسا وحدها، ولكن في بلدانٍ أوروبيّة أخرى أيضاً، مثلَ ألمانيا وأنجلترا. وأما في فرنسا على وجه الخصوص، فقد ظهَرت محاولاتٌ كثيرةٌ يمكن ـ بشكل أو بآخرـ اعتبارُها داخلةً في المفهوم الواسع للقاموس التاريخيّ. وسنذكر منها أربعةَ كُتُب لها أهميةٌ خاصةٌ، وبعضٌ من هذه الأربعة كان يُمثِّل بحقٍّ تطوُّراً ناجِحاً في موضوعه:

أما الكتابُ الأولُ فهو القاموسُ الذي أصدره سنة 1839م كلٌّ من فرانسوا نويل ول.ج. كاربُونتيي بعنوان: «*القاموس الإيتيمولوجيّ النَّقديّ والتاريخيّ* ... Dictionnaire étymologique ,critique, historique...». وهذا الكتاب الذي يُعتبَر ثانيَ قاموسٍ لغوي فرنسي يَحملُ في عنوانه عبارةَ «قاموس تاريخيّ»، حاولَ أن يجمع بين التَّأثيل المعجميّ والنقد والتاريخ والأدب والنوادر والحكايات. وهو إن لم يصل إلى مرحلة وضع تواريخَ محدَّدةٍ لظهور الكلمات أو تطوّرها، إلا أنه تأثَّر إلى حدٍّ كبير بطريقة جيل ميناج وسانت بالاي مع نوعٍ من الإيجاز، إذ اكتفى بذكر أصول الكلمات والشواهد النَّصِّية المُختارة من كبار الكُتّاب لاستعمالها، مُعتَبِراً أن ذلك في حدِّ ذاته نوعاً من الاهتمام «بجانبها التاريخيّ ومرحلة دخولها إلى اللغة الفرنسية، وظروف حياتها قبل أن تتبنّاها هذه اللغةُ بصفة تامة»[7].

وأما الكتابُ الثاني، فكان أكثرَ عُمقاً وتخَصُّصاً من السابِق، وهو القاموس الذي أصدَرَته الأكاديميّةُ الفرنسيّةُ بعنوان: «*القاموس التاريخيّ للغة الفرنسيّة*:

5 – من فضائل الثورة الفرنسيّة (أواخر القرن الثامن عشر) على اللغة الفرنسيّة أنها صَمَّمت أكثرَ من أيِّ وقت آخر على توحيدها وفرض استعمالها في كل أجهزة الدولة وخاصة في التعليم ومحاربة كلِّ اللهجات واللّغات الإقليمية، وهذا ما أدى إلى تشجيع العلماء والمؤسسات العلمية على خدمة اللغة الفرنسية الفصيحة (لغة الأدب والثقافة والإدارة والتعليم) حتى يكتمل استقلالُها نهائياً عن اللغة اللاتينيّة، ويتمَّ أيضاً تعميم أفكار الثورة ومبادئها.

6 – مقدمة قاموس ليطري الآتي الذكر.

7 – من مقدمة الكتاب.

Dictionnaire historique de la langue française». وهو ثالثُ عملٍ فرنسيّ يحملُ في عنوانه عبارةَ «قاموس تاريخيّ». ولكنه للأسف لم يصدر منه سوى أربعة أجزاءٍ (ما بين سنتَي 1865 و1894م) اقتصَرَت كلُّها على معالجة الحرف الأول من الأبجديّة الفرنسيّة[8]. وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذا القاموس لم يصل إلى مرحلة النَصِّ على تواريخ محدَّدة أو تقريبية لظهور الألفاظ ومعانيها المختلفة، ولكنه سار على منوال قاموس سانت بالاي، في العناية بذكر المصادر المعجمية القديمة التي ورَدَت فيها من قبلُ، والشواهدِ والنصوص التي تُؤرِّخُ للمرحلةَ التقريبيّة التي استُعمِلت فيها الكلماتُ، مع اهتمامٍ ملحوظٍ بالصيغ القديمة للكلمة. ففي معالجته لكلمة (abaisser) ـ مثلاً ـ يذكر ثمانيَ صيغٍ قديمة لهذا الفعل أوردَها سانت بالاي (ق18م)، وصيغةً أخرى ذكرَها قاموسُ روبير إتيان سنة 1539م، وقاموس نيكو سنة 1606م، وصيغةً أخيرة (abbaisser) أقرَّها قاموسُ الأكاديمية سنة 1694م.

والكتابُ الثالث هو القاموس الشهير الذي أصدرَه إميل ليطري ما بين 1863 و1872م بعد مدةِ اشتغالٍ دامَت حوالَي ثلاثين عاماً. وكان المؤلفُ في البداية قد اختارَ له عنوانَ: «*القاموس الإيتيمولوجيّ الجديد للغة الفرنسيّة*: Nouveau dictionnaire étymologique de la langue française»، إلا أن الناشر السيد هاشيط اقترحَ عنواناً آخر وهو[9] :«*القاموس التاريخيّ والنَّحويّ للغة الفرنسية*:Dictionnaire historique et grammatical de la langue française»، فكان بذلك رابعَ قاموس فرنسي يَحملُ في عنوانه عبارةَ (قاموس تاريخي). لكنَّ الذي حدَثَ فيما بعدُ، هو أن الكتاب طُبِعَ بعنوانٍ آخر وهو: «*قاموس اللغة الفرنسية*:Dictionnaire de la langue française». وأهميةُ كتاب ليطري بين سلسلة القواميس الفرنسيّة والأوروبيّة عموماً، كبيرةٌ ومعروفة، ليس فقط بسبب ما تضمَّنه من مادة معجمية مَوثوقٍ بها عند العلماء، ولكن أيضاً بسبب

8 – توقف المنشورُ من الكتاب عند كلمة (azyme).

9 – انظر: محاضرة ليطري:? Comment j'ai fais mon dictionnaire، مرجع مذكور.

الخطوات الجديدة التي أضافَها إلى الصناعة القاموسيّة، ومنها حُسنُ تَنسيقه وترتيبه للمعلومات المُضَمَّنة في تعريفات المداخل المعجميّة، وكونُه أولَ قاموس فرنسيّ يُعنَى عنايةً متميِّزةً بالجانب التاريخي لظهور الألفاظ وتطوُّر دلالتها واستعمالها، وتخصيصه فقرةً لذلك مُنفَصِلةً عن تلك المتعلِّقة بالجانب التأثيليّ والاشتقاقيّ، فضلاً عن اهتمامه بسياقات الاستعمال المختلفة والشواهد النَّصِّية. هذا فضلاً عن المقدمة الضافية المعمَّقة التي قدَّمَ بها لهذا القاموس، وشرحَ فيها شَرحاً جيداً الجوانبَ المفيدة لوجود العنصُر التاريخيّ في القاموس اللغويّ، ومنها أنه يُوظَّفُ لفهم طريقة الاستعمال[10]. ولقد تحدثَ المؤلفُ عن تجربته في وضع هذا القاموس[11]، ومما وردَ في ذلك أن أحد المهتمِّين من الإنجليز اتصَلَ به وطلبَ منه ـ وهو في المراحل الأولى من عمليّة التأليف ـ أن يُبيِّن له الخُطةَ التي اتَّبَعها في إنجاز قاموسه من أجل الاستفادة منها في وضع قاموس تاريخي للغة الإنجليزية. وليس مُستبعَداً أن يكون هذا الشخصُ الذي رغبَ في الاستفادة من تجربة ليطري واحداً من الذين اشتَغلوا بتأليف قاموس أكسفورد الشهير[12].

وتقوم خُطَّة قاموس ليطري على العناصر الخمسة التي رَتَّبَها على النحو الآتي:

الأول: ذكر الكلمات / المداخل مُرتَّبةً ألفبائيّاً، وقد استقاها أساساً من مدوَّنة قاموس الأكاديمية الفرنسية الصادر عام 1694م، مع إضافة ما هو

10 – يقول في مقدمة الكتاب : «قد يعتقد بعضُ الناس، أن القاموس الذي يتدخَّل فيه التاريخُ هو عمل موجَّه للفئة المتبحِّرة في العلم. وهذا غيرُ صحيح، فالتبحُّر العلمي l'érudition ليس موضوعًا أو هدفاً في ذاته، ولكنه أداةٌ. وما نَجنيه من الجانب التاريخيّ هو أننا نوظِّفه من أجل استكمال طريقة الاستعمال التي عادة ما تكون فكرةً محدودة جدا..... وهكذا فإن القاموس التاريخي هو المِشعلُ الذي يُضيءُ الاستعمالَ، ولا نلجأ إلى التبحُّر (أو التدقيق العلمي) إلا من أجل الوصول إلى خدمة اللغة».

11 – محاضرة ليطري بعنوان : Comment j'ai fais mon dictionnaire ?

12 – بدأ العملُ في جمع مادة قاموس أكسفورد منذ حوالي 1857م، ولكن نشره لم يبدأ إلا سنة 1878م، وقد أشرف جيمس موري James Murray (1837 - 1915) على تحرير القسم الأول من الكتاب، ولم يكتمل صدورُه إلا سنة 1928م.

مُستعمَلٌ وشائعٌ من ألفاظ العلوم والفنون والصنائع الموجودة في الحياة العَمَلية.

الثاني: النَّصُّ على طريقة نُطقها الصحيح[13]، وذكرُ مَقُولتها النحوية (اسم ـ فعل ـ أداة ـ صفة ...الخ)، وجِنسها (مذكّر، مؤنث) وعددها (مفرد، جمع ..).

الثالث: ذكرُ المعاني المختلفة للكلمة مُرَقَّمَةً ومرتَّبة ترتيباً خاصاً بتقديم المعاني الأصليّة على الفرعيّة، والحقيقيّةِ على المَجازيّة، والعامة على الخاصة والاصطلاحيّة. مع ذكر الأمثلة والشواهد على طريقة تركيبها وكيفية استعمالها مأخوذةً من كتابات المؤلفين الكلاسيكيّين (من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر).

الرابع : ذكرُ تواريخ ظهور الكلمات. وهي تواريخ تقريبية يَكتفي فيها بالإشارة إلى القرن الذي ظهَرت فيه وليس إلى السنة كما سنجد في القواميس التاريخيّة اللاحِقة. فكلمة (abricot) مثلاً يؤرِّخ ليطري لظهورها في اللغة الفرنسية بالقرن السادس عشر الميلادي.

الخامس: العنصرُ الاشتقاقيّ التأثيليّ، بذكر أصول الكلمة ومَصدرها (إغريقيّ ـ لا تينيّ ـ عربيّ ... الخ). فكلمة (abricot) مثلاً، يَذكُر أنها دخلت إلى الفرنسيّة عن طريق الإسبانيّة (albaricoque) التي أخذَتها بدورها عن العربيّة (البرَقوق)، والعربيّةُ أخذَتها عن اليونانيّة، وأن الكلمة العربيّة استعارَتها أيضاً بقيةُ اللغات الرومانية (كالإيطاليّة :albircoca / albercoca ـ والبرتغاليّة : albricoque).

وهذه العناصر الخمسةُ المُعتَمَدَة في قاموس ليطري، هي نفسُها التي أصبحت منذ ذلك التاريخ مُكوِّناتٍ أساسيةً للتعريف في القاموسية الحديثة والمعاصرة.

13 – فكلمة (abricot) مثلا تُنطق: ab –ri – ko بإهمال حرف (T)، وفي كلمة (cafard) ينبّه إلى أن حرف (d) لا يُنطق.

ومن الصفات الحميدة للسيد إميل ليطري اعترافُه بفضل السابقين عليه في إنضاج فكرة تأليف قاموس تاريخيّ للغة. يقول في مقدمة كتابه (ط. 1872م) : «لم أكُن أنا أولَ من فكَّر في إدخال التاريخ إلى قاموس اللغة الفرنسيّة. فقد سبَقَ لفُولطير أن اقترحَ عملاً من هذا القبيل، ناصِحاً باستقاءِ الاستشهادات من نصوص الكُتّاب الكبار، عوضَ الإتيان بها بطريقة اعتِباطية. والأهمُّ من ذلك أن السيد (جِينين)[14] ـ وهو الرجل المُغرَم باللغة القديمة ـ كان يُوصي بالعمل من أجل السَّير في اتجاه الوصول إلى هذه اللغة القديمة بكل إرادةٍ وتَصميم، وتَحدِّي كلِّ قوةٍ تقفُ في سبيل ذلك. وقد تبنَّيتُ فكرتَيْ كلٍّ من فُولطير وجِينين، وعملتُ على وضع خُطَّةٍ غيرِ مسبوقةٍ خاصةٍ بي. **فكنتُ أولَ من عملَ على إخضاع القاموس للتاريخ من كلِّ ناحية**. وعَزمتُ على تنفيذ العمل مُعتَمداً على ما لديَّ من قُدرةٍ وتُؤَدَة، وما قد يكون لي من حظّ سعيد...». ثم إنه بالإضافة إلى استفادته من نصائح فُولطير وجِينين، أشارَ إلى اطلاعه على تَجربَتين أُخرَيَين مُتزامِنتَين مع فترةِ عمله في قاموسه، هما:

1) المَلازِمُ الأولى من «*القاموس التاريخيّ للأكاديميّة الفرنسيّة*»، وهي ـ إذ ذاك ـ عبارةٌ عن فَصلةٍ تشتملُ على الكلمة الأولى من حرف (A) ظهَرَت قبل اكتمال الجزء الأول المطبوع سنة 1865م.

2) الأجزاء الأولى من القاموس التاريخيّ الألمانيّ الذي كان يشتغلُ بتأليفه الأخوان غريم (جاكُوب وويلهيلم) منذ سنة 1838م[15].

---

14 – François Génin (1803 - 1856) مؤلف كتاب بعنوان : Des variations de langage français depuis le 12ème siècle، صدر سنة 1843م .

15 – عنوان هذا الكتاب هو: القاموس الألمانيّ (Deutsches WÖrterbuch)، وهو قاموس تاريخيّ للغة الألمانيّة، يُرجِع كلَّ كلمة إلى أصلها الإيتيمولوجي، ويتتبع تطورَها واستعمالاتها ودلالتها. ورغم أن العمل في الكتاب بدأ منذ سنة 1838م، فإن الجزء الأوّل منه لم يصدر إلا سنة 1854م. وخلال حياة المؤلفين لم يصدر من هذا القاموس إلا بضعة أجزاء. وهكذا عملت أجيالٌ بعدهما على إكمال عَمَلهما ولم ينتَه إلا سنة 1961م بصدور الجزء 32. وفي سنة 1957 بدأ العملُ في مراجعة جديدة لهذا القاموس، فلم يكمل إصدارُه في طبعته الجديـدة إلا سنـة = =

والكتابُ الرابع من قواميس القرن التاسع عشر التي اعتبَرناها ذاتَ أهمية خاصة في موضوعنا، هو الذي ألَّفه كلٌّ من أدُولف هاتسفيلد وأَرسين دارمستيتر، وطُبِع ما بين سنتَي 1890 و1900م بعنوان :«*القاموس العام للغة الفرنسيّة*: Dictionnaire général de la langue française». ورغمَ أن هذا الكتاب مُصنَّفٌ في العادة ضمن القواميس اللغويّة العامة، ولا يَحملُ في عنوانه كلمةَ «تاريخ» أو «تاريخيّ»، مثلُه في ذلك مثل *"قاموس أكسفورد للإنجليزية"*، و*"القاموس الألمانيّ"*، و*"ذخيرة اللغة الفرنسيّة"*، إلا أنه مع ذلك يُعتبَرُ خُطوةً جديدةً في مجال التأريخ المعجمي. فلأول مرةٍ في تاريخ القواميس الفرنسيّة، نجد كتاباً يُعنَى بوضع تواريخَ مُحدَّدةٍ بالسنوات للمداخل التي يُورِدُها. فكلمةُ (abricot) ـ مثلاً ـ التي اكتفَى ليطري سابقاً في التأريخ لها بالقول إنها من ألفاظ القرن السادس عشر، نجدُها في قاموس هاتسفيلد وصاحبِه يُؤرَّخُ لها بسنة 1547م، ويؤرَّخ لبعض مُشتَقاتها على النحو الآتي: abricotin — (1690) abricoté (16s.) abricotier — (1751). ويردُّ أصلَها إلى البرتغاليّة والإسبانيّة اللَّتين أخذَتاها من العربيّة، والعربيّةُ واللاتينيّة معاً أخذَتاها من اليونانيّة. وإذا كان ليطري يبدأ بشرح معاني الكلمة ويُتبِعُه بذكر تاريخها ويَنتهي بالناحية التَّأثيليّة، فإن هذا القاموس يَعكِسُ ترتيبَ هذه الأمور تَماماً، فيبدأ بتأصيل الكلمة واشتقاقها، وبعدها يذكر تاريخ ظهورها، وينتهي بذكر معانيها.

وهكذا، لن يحلَّ مطلعُ القرن العشرين، إلا وقد أصبح للفرنسيِّين تجربةٌ لا بأس بها في التأريخ لمعجم لُغتِهم استغرَقَت من الوقت حوالي ثلاثة قرون، إذا اعتبَرنا أن كتابَ جيل ميناج هو الخُطوةَ الأولى في هذا الدَّرب الطويل. وقد استفادَت الصناعةُ القاموسيةُ الأوروبيةُ بصفة عامة، والفرنسيّةُ خاصةً، من

= = 1965. ثم صدرت طبعة رقمية على القرص CD- Rom سنة 2004م. أما الأخوان غريم (Les frères Grimm) فقد توفي الأولُ منهما وهو (Wilhelm) سنة 1859م، والثاني وهو (Jacob) سنة 1863م.

نتائج البحوث والأعمال الكثيرة التي أُنجِزَت في الغرب خلال القرون الثلاثة السابقة (من السابع عشر إلى التاسع عشر) في علم اللغة التاريخيّ والمُقارِن، وخاصةً في مجال الإيتيمولوجيا وتَأثيل الألفاظ وتأليف القواميس الثُّنائيّة والمُتعدِّدة اللغات. وسيكون الكتابُ الصغيرُ الذي نشَرَه الفرنسيُّ أوسكار بْلُوخ وراجَعَه السَّويسري والتِر فُون وُرْتْبُرْغ سنة 1932م بعنوان: (القاموس *الإيتيمولوجيّ للغة الفرنسيّة*: Dictionnaire étymologique de la langue française) بدايةَ عهدٍ جديد في صناعة القواميس التاريخيّة الفرنسيّة التي سوف تأخذُ طُرُقاً ومسالكَ عديدةً ومتنوِّعة، إلى أن تَكتمل صُوَرُها وتِقنيّاتُها بصدور كلٍّ من *"القاموس التاريخيّ للغة الفرنسيّة"* (DHLF) (*1992*م) المعروف اختِصاراً باسم: *"روبير التاريخيّ"*، وقاموس: *"ذخيرة اللغة الفرنسيّة"* (*TLF*) (*1994*م). هذان الكتابان يمكن اعتبارُهما قمةَ التجارِب الفرنسيّة في هذا المجال، مقارنةً مع عددٍ من عناوين المحاولات الأخرى التي سيمرُّ بنا ذكرُها في الصفحات الآتية. إذ فيهما ستظهَر كلُّ العناصر المُكوِّنة لمفهوم «التأريخ» لمعاجم اللغات كما أصبح مُتعارَفاً عليها في هذه الصناعة الحديثة الفَتِيَّة.

ـ 2 ـ

الآن، لو أرَدنا، من خلال هذه التَّجربة الفرنسية الطويلة والغَنيَّة وغيرِها من التجارب الأخرى القديمة والحديثة، أن نبحث في أهم النُّقَط التي تكون سَبَباً في تنوُّع القواميس التاريخيّة فيؤدِّي ذلك إلى اختلاف خُطَط إنجازها، لوَجَدناها في الجملة لا تخرُج عن المحاور الآتية :

1 ـ تحديد أهداف القاموس التاريخيّ.

2 ـ تحديد مفهوم «القاموس التاريخيّ» أو«تأريخ» المعجم اللغويّ.

3 ـ المادة المعجميّة (نوعُها ـ كمِّيتُها ـ مصدرُها ـ عصرُها ـ مستواها الاستِعماليّ..الخ).

4 ـ المعلومات التي ينبغي أن تُقدَّم عن هذه المادة المعجميّة.

5 ـ صياغة المادةِ المعجميّة والمعلوماتِ عنها، وطريقة تَعريفها وترتيبها.

وهذه النُّقط الخمسُ هي التي تُنتِج مجموعةً من الأسئلة والإشكالات التي لا بُدَّ من حَسمها والقَطع فيها برأيٍ مُوحَّد بين أعضاء الفريق الذي يُوكَلُ إليه أَمرُ صناعة القاموس التاريخيّ للغة العربيّة.

1 ـ ففي مقدمة الأسئلة التي تقتضي ضرورةَ تحديدِ الإجابة عنها، لأجل تحديد التَّوجُّهات العامة لخُطّة الإنجاز، هناك السؤالُ عن أهداف هذا القاموس والفِئة التي يَتَوَجَّه إليها.

وتحديدُ الهدَف معناهُ: تحديدُ الغايةِ من تأليف القاموس، والفائدة المرجُوَّةِ منه. وإذا نحن قدَّمنا جواباً سريعاً فقلنا الآن:إن الهدَفَ العامَّ معروفٌ لدينا ـ كما ذكرتُ سابقاً ـ وهو وضعُ كتابٍ يُؤَرِّخُ لألفاظ اللغة العربيّة، وأن الفائدةَ المرجوّةَ هي باختصار تقديمُ خِدمةٍ خاصّة لا تُوفِّرُها أنواعُ القواميس اللغوية الأخرى، فإن هذا الجوابَ العامَّ وحدَه لا يَكفي لتحديدِ كلِّ الملامِح والمُواصَفات الدَّقيقة للقاموس الذي نُريدُه تَحديداً يُميِّزُه عن سِواه من أنواع القواميس التاريخيّة وهي كثيرةٌ كما رأينا. وإذن، لا بُدَّ من تَعميقِ السُّؤال: سُؤال الهَدَف، لإضافة سِماتٍ أُخرى تَزيدُ في توضيح الصُّورة والكَشفِ عما هو أَكثرُ خُصوصيّةً في شكل هذا القاموس المطلوب. ولا شَكَّ في أن كل واحدٍ من الأسئلة الكُبرى التي سيأتي ذكرُها تِباعاً، وما يَتَفَرَّعُ عنها من سُؤالاتٍ أخرى، سَيُقَرِّبُنا بطريقةٍ مُباشِرةٍ أو غيرِ مُباشِرةٍ، وخُطوةً خُطوةً نحو أخصِّ خصائصِ الغاية التي نسعى إليها ونَهدِفُ لتَحقيقها.

ويَرتَبِطُ بتحديد الهدَف والزِّيادةِ في توضيح الطريقِ إليه، تحديدُ الفِئة المُوجَّهِ إليها هذا القاموسُ. فهل نُريدُه قاموساً مُوجَّهاً لطبَقةٍ ضَيِّقة من القُرّاء

تنحَصِر في خاصَّة الباحثين والعلماء المُتَبَحِّرين الذين لا تُقنِعُهم الكلماتُ العامَّةُ والأَحكامُ المُرسَلةُ، وإنما يَجدون مُتعتَهم في الغَوص وراء أَدَقِّ التفاصيل في حياة ألفاظ اللغة العربيّة واستِعمالِها وما يدخُلُ عليها من تطوُّرٍ وتحوُّلٍ في النواحي كلِّها الصوتيّةِ والصرفيّةِ والتَّركيبيّة والدلاليّة، ويَسعون إلى التعمُّق في كلِّ شيءٍ مما يَتعلَّقُ بذلك، ولا يَذَرُون شاذَّةً ولا فاذَّةً إلا أَشبَعُوها فَحصاً وبَحثاً، وقَلَّبُوها ظَهراً وبَطناً، ولا يَطمَئِنُّون لقولٍ أو خَبَرٍ، أو تَحليلٍ أو نَظَر، إلا ما كان مُدَعَّماً بُحُجَّةٍ ومُرفَقاً بِشهادةٍ، ومُوثَّقاً بدليلٍ وليسَ أيّ دليلٍ ؛ أم نَريدَه مُوجَّها للفِئة الواسعة من المُثَقَّفين الذين لا يبحثون عن أدقِّ التفاصيل ولا يُعنَون بالجُزئِيّات، ولا يُلِحُّون في طَلَبِ الشاهِدِ والدليلِ، ولا وقتَ عندهم لكثرة المعلومات والتَّدقيقِ فيها، وإنما يَكفيهُمُ خُلاصةُ البحثِ وعُصارةُ النتائج، وصحةُ المعلومات، ولاسيما إذا صِيغَت في أوجَز عبارةٍ وأَبسَطِ تَركيبٍ؟

وتحديدُ فِئةِ القُرّاء تترتَّبُ عنه بالضرورة أَشياءُ كثيرةٌ، كتحديد حَجم الكتاب، والمادة اللغوية، ونوعية المعلومات وعناصِرِها وكَمِّيتِها، وصياغة التعريفات، واللغةِ الواصِفةِ، والمُصطلحات المُستخدَمة... وما إلى ذلك من الأمور الكثيرة التي سنراها في الصفحات الآتية.

2 ـ وبعد تحديد الهَدف، لا بُدَّ أَن يَأتيَ السؤالُ عن تحديد مفهوم «التأريخ»، أي التأريخ لألفاظ اللغة. ما المَقصُودُ به؟ وكيفَ يكونُ؟. وبالجواب عنه يَتحدَّد جُزءٌ مُهمٌّ من أهداف القاموس المُرادِ إنجازُه. ذلك أننا حين نقوم بجولة بين عدد من القواميس المَوصوفة ب «التاريخية» في عدد من اللغات الأجنبيّة، لن نجد عندها مفهوماً مُوَحَّداً ومُحَدَّداً لكلمة «تاريخ ».

فهل معنى «التاريخ» هو مجرَّدُ رصدِ الألفاظ المستعمَلة واستخراجِها من النصوص الواردةِ فيها والاستشهادِ على طريقة استِعمالها ودلالتها وصِغَتها باستحضار نُتَفٍ من تلك النصوص، على طريقة القاموس التاريخي لسانْت

بالاي والقاموس التاريخي للأكاديميّة الفرنسية، والجزء الصغير من *"المعجم التاريخيّ"* الذي كتبَه المستشرق الألماني فيشر للغة العربية؟ وهل معناه ينحصِرُ في وضع تواريخَ مضبوطة بالسَّنوات، أو تقريبيّة بالفَتَراتِ أو القُرون، لظُهور الكلمات واستعمالِها بصيغة معيَّنة أو معنىً من المعاني؟ وهل ينبغي في هذه الحال، أن نُدخلَ تحت عنوان «القاموس التاريخيّ» كلَّ كتابٍ تضَمَّنَ تواريخَ من هذا النحو، مثل سلسلة قواميس روبير الفرنسيّة وغيرِها من القواميس الأوروبيّة العادية التي أصبحت تَعتَبرُ النَّصَّ على تاريخ بدايةِ استِعمالِ كلمةٍ أو تاريخِ إضافتِها إلى معجم اللغة المدروسة، عُنصُراً مطلوباً ومُعتاداً بين عناصر التعريف الأخرى في القاموسيّة الحديثة العامة؟ وعلى كل حال لقد أصبح من الواضح أنه ليس من الضروري أن تَرِد في عنوان أيِّ قاموس صفةُ «تاريخي» لكي نعتبرَه قاموساً تاريخياً بالفعل. فقد تبيَّن حقّاً أن هناك قواميس تاريخيّة نموذجيّة لكنها مع ذلك لم تَستعمِل في عناوينها هذه الصفة، منها *"قاموس أكسفورد الإنجليزي* – OED"، و"ذخيرة اللغة الفرنسيّة– TLF"، و"القاموس الألمانيّ– DW" للأخَوين غريم.

وكثيرٌ من اللغويّين فَهِمُوا أن التأريخ لألفاظ اللغة محصورٌ في بحث أصولها واشتقاقاتها وإجراء حَفريّاتٍ حول تطوُّر صيَغها وأصواتها ودلالاتها مما كان يدخل تحت مسمَّى علم الإيتيمولوجيا أو علم التأثيل أو التّأصيل (وقد يُسمَّى: التَّرسيسَ أيضاً). وهذا ما يجعلنا نلاحظ أن هنالك كثيراً من القواميس المشهورة التي عادةً ما تُصنَّف ضمن القواميس التاريخيّة، تَحمِل عنوانَ *«قاموس إيتيمولوجيّ»*، ونذكر منها على سبيل المثال: قاموس أوسكار بْلُوخ وقاموس جاكلين بيكوش، والكتاب الذي نشرَه ألبير دوزا سنة 1938م بعنوان: *«قاموس إيتيمولوجيّ للغة الفرنسيّة»*، وأعاد مراجعَتَه جان ديبوا وهُنْري ميتيران وأصدَراه في طبعة جديدة (1964م) بعنوان: *«القاموس التاريخيّ والإيتيمولوجيّ للفرنسيّة»*، لكنه صدرَ في طبعة لاحِقة (2001م) بصيغة: «القاموس

الإيتيمولوجيّ» دون أن يطرأ أدنى تغييرٍ على محتَوى الكتاب بين هاتين الطَّبعتين الأخيرتين. بل إننا نجد في كل نماذج التجربة الفرنسيّة (من القرن 17 إلى القرن 20م) من القواميس التي تسمَّى بالإيتيمولوجيّة[16]، إصرارَ أصحابها على إدراج أعمالهم ضمنَ مجال التأريخ للمعجم الفرنسيّ. فقد كتَب أوغِست بْراشي في مقدمة قاموسه المسمى *:«القاموس الإيتيمولوجيّ للغة الفرنسيّة»* (*Dictionnaire étynologique de la langue française)* يقول: «هذا القاموس الإيتيمولوجيّ هو التَّتِمة الطبيعيةُ لكتابي المسمى: *"النحو التاريخيّ"* الذي نشَرتُه العامَ الماضي. لقد وضعتُ في ذلك الكتاب تاريخَ الصِّيَغ النحوية للفرنسيّة، ومن أجل إتمام هذا العَمل والوصول إلى رسم الدائرة الكاملة لتاريخ لغتنا، كان عليَّ أن أضعَ تاريخاً لألفاظها، وذلك هو موضوع هذا الكتاب. فهذا القاموس الإيتيمولوجي هو الذي سوف يُكمِلُ ذلكَ التاريخَ». وحين يُعرِّف الإيتيمولوجيا يقولُ عنها إنها: «شَرحٌ للمعانى الصحيحة للكلمات عن طريق التأريخ لها». ثم يُضيفُ:

16 – هناك لائحة طويلة من القواميس الفرنسيّة التي ألفت خلال الفترة المذكورة تحت عنوان : «قاموس إيتيمولوجيّ للغة الفرنسيّة» أو عنوانٍ قريب منه، نذكر منها بالإضافة لما ورد في ثنايا هذا البحث، العناوين الآتية على سبيل المثال لا الحصر، وأغلبُها أُلِّفَ في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين:

- Dictionnaire étymologique des mots français dérivés du grec, par J-B.Morin, 1809
- Dictionnaire étymologique de la langue française, par Jean-Baptiste de Requefort ,1829
- Les principales étymologies de la langue française , par Bernard Jullien , 1862
- Dictionnaire étymologique de la langue française usuelle et littéraire, par : Adolphe Mazure, 1863.
- Dictionnaire étymologique des mots de la langue française dérivés de l'arabe , du persan ou du turc, par Antoine Pihan , 1866
- Dictionnaire étymologique de la langue française, par : August Brachet, 1968
- Dictionnaire étymologique des mots d'origine orientale, par Marcel Devic ,1876
- Dictionnaire d'étymologie française d'après les résultats de la science moderne, par Auguste Scheler, 1888
- Mélanges d'étymologie française, par Antoine Thomas, 1902
- Dictionnaire étymologique de la langue française , par Léon Clédat , 1914

«سنَعرِضُ في هذا الكتاب الخطوطَ الأساسيّة لهذا التاريخ الطبيعيّ للغة[17]. وبالنسبة للإيتمولوجيا فهي تُقدِّم للعالِم [اللغوي] مُساعداتٍ غير منتظَرَة، إذ سوف تصبح في يده أدواتٌ ثَمينةٌ هي بمثابة المِنظار المُكَبِّر الذي يُمَكِّنه من فَحص أدقِّ التفاصيل. وهذه الأدواتُ ثلاثٌ هي: الدراسة الصوتيّة، والتاريخ، والمقارنة ». وبفَضل استعمالِ هذه الأدوات البَحْثية أصبح هذا العِلمُ « يقدِّمُ من الخَدَمات ما عَجَّلَ باحتلالِه مكانةً لا ينبغي التفريطُ فيها بين العلوم التاريخية ».

أما إميل ليطري، فقد رأينا كيف تَردَّدَ في تسمية كتابه بين *«القاموس الإيتمولوجيّ الجديد ...»* و*«القاموس التاريخيّ للغة الفرنسيّة»*، وكيف أنه وضعَ مقدمة طويلةً يشرحُ فيها أهميةَ التأريخ لألفاظ اللغة، وكيف اعتبر نفسَه« أولَ من عملَ على إخضاع القاموس للتاريخ من كلّ ناحية». وحين تَحدَّث عن الجوانب التي تشمل ميدان البحث الإيتيمولوجيّ للغة الفرنسية، ذكرَ أنها يجب أن تشتمل على خمسة عناصر أهمُّها : البحثُ في المعنى، والشكلُ (أو الصيغة)، وقواعدُ التحوُّل والتغيُّر، والتاريخ .

وفي *"القاموس العام للغة الفرنسيّة" (DGLF)* لهاتسفيلد وصاحِبِه، نجد المؤلِّفين يوضِّحان مفهومَهما للتاريخ بالقول : «المنهجُ التاريخيّ لا يعني فقط أن نذكر المعاني المختلفة للكلمة مُنطَلِقين من المعنى الأول الذي منه تَفرَّعَت بقيةُ المعاني (...) إن معرفة تاريخ اللغة يقتضي معرفةَ كيفية تكوين هذه اللغة. وأولُ عُنصر من عناصر هذا التكوين، هو معرفةُ منابعِ المعجم الفرنسيّ المختلفة، أي تلك التي استمَدَّ منها هذا المعجمُ مادَّتَه اللغوية. فرَوافدُ اللغة الفرنسية مثلاً تتكوَّن من الرَّصيد اللاتينيّ الأوَّليّ، ثم ما أُضيفَ إليه من كلماتٍ جاءت من اليونانيّة والسِّلتيّة والجِرمانيّة والسلافيّة والإسبانيّة والإيطاليّة، واللغات الساميّة

17 – يشبِّه المؤلفُ – مثل أستاذه إميل ليطري ـ علم التأثيل (الإيتيمولوجيا) بعلم التشريح في الطب، ويقول إن علم التأثيل أصبح جزءاً من العلوم التي تخضع للملاحظة والتجربة مثل بقية العلوم الطبيعيّة الأخرى، وقد اعتُرِفَ لها بذلك منذ ثلاثينيّات القرن الثامن عشر.

... الخ. وينبغي بعد ذلك معرفةُ القوانين الصَّوتية التي أدَّت إلى التغيُّرات والتَّحوُّلات في عدد من الكلمات الفرنسيّة (...) وفي المرحلة الثالثة: معرفةُ القوانين النحويّة التركيبيّة التي عملت عمَلَها في تغيير التراكيب الفرنسيّة وصِيَغها الصَّرفية..».

إذن، التأريخُ لألفاظ اللغة بهذا المعنى، يدخل ـ عند مجموعة من اللغويين قُدامى ومُحدَثين ـ ضمن المجال الواسِع الذي كان يُعطَى للإيتيمولوجيا، أو هو أداتُها الأساسية. وقد يُصبحُ مُرادِفاً لها ومُتَضَمِّناً لعناصرها المختلفة أحياناً، باعتبار أن أهمَّ ما يُطلَبُ تحقيقُه في قاموسٍ تاريخيّ هو البحثُ في أصول الكلمات، وإجراءُ حَفْريّاتٍ حول تَغيُّر صِيَغها وأصواتها ومَعانيها، وتَتبُّعُ حالاتها عبرَ الحِقَب، ومقارنةُ حاضِرِها بماضيها،. لكن في النهاية، لا بدَّ من القول إن كلَّ تجارِب المراحل السابقة، قد أَفضَت إلى وضع مفهومٍ حديثٍ للقاموس التاريخيّ للغة، يمكن أن نستمدَّ عناصرَه الأساسية من النماذج المُتأَخِّرة التي ظهَرت من هذا النوع من القواميس، وأخصُّ بالذكر منها قاموسَين اثنين هما : 1) «*القاموس التاريخي للغة الفرنسيّة*» (DHLF) الذي أصدرته دار روبير (1992) وأشرَف عليه المعجميّ الشهير آلان ري. 2) «*ذخيرة اللغة الفرنسية*» (TLF) (1994) الذي أصدَرَه المركزُ الوطنيّ للبحث العلميّ في فرنسا بإشراف لغويٍّ شهير أيضاً وهو العميد بُول إمْبس. ومعلومٌ أن هذين القاموسين الفرنسيَين الحديثين قد استَفادا ـ أولاً ـ من التجارِب الفرنسيّة المُتأَصِّلة والمُتَدَرِّجة طيلةَ ثلاثة قرون في محاولةِ كتابة تاريخ المعجم الفرنسيّ، كما استفادا ـ ثانياً ـ من التجارِب الأوروبيّة الأخرى المُواكِبة بصفة عامة، ومن تجربتَي القاموسين الألمانيّ والإنجليزيّ (أكسفورد) اللذين بدأ العملُ فيهما منذ القرن التاسِع عشر، بصفة خاصة. وهذه العناصرُ الأساسية التي أَشَرنا إليها هي التي تضَمَّنَها تعريفُنا المُرَكَّز للقاموس التاريخيّ حين قلنا في بحث سابِقٍ إنه ينبغي أن «يَتناولَ الشكلَ والمَضمون، أي

الدالَّ والمدلول، ويرصد كلَّ أوجه التطوُّر أو التغيُّر في المعاني والألفاظ، ويُتابِعها في كل أبعادها الزَّمانيّة والمَكانيّة، وفي كل مجالات الاستعمال ومُستوياته»[18]. ومعنى هذا أن مفهومنا للتاريخ المعجميّ يشمل كلَّ الجوانب التي ترصُد مختلف التَّغيُّرات التي تَطرَأُ على اللفظ، صوتاً وصيغةً وصَرفاً ودلالةً وطريقةَ تَركيبٍ واستِخدامٍ، عبرَ مراحل استِعماله كلِّها وفي كل المجالات والبِيئات والمُستوَيات. وهذا لا يمكن أن يتمَّ ويَكتمل إلا بعنصُر التأثيل والتأصيل والحَفر في أركيولوجيّة الكلمات والبحث في مصدرها ومعرفة مدى أصالتها وعَراقَتها في اللغة المُؤرَّخ لها، أو انتِقالها وهِجرتها من لغة إلى أخرى. وكم في رِحلة الكلمات من قِصَصٍ طريفةٍ وحكايات مُمتِعة تفتَحُ الأفاقَ الواسِعة لكل الباحثين في تلاقُح الحضارات والثقافات وتداخُل اللغات وتطوُّرها صيغاً ودلالاتٍ.

فإيتيمولوجيةُ اللفظ ـ خِلافاً لما يَعتقده البعضُ ـ جزءٌ أساسي من التأريخ له، وإن كان ليس وحدَه كافياً دون بقية العناصر. ولعل ضرورة الجمع بين كل هذه العناصر هي التي جعَلت بعضَ المؤلِّفين يَحرِصون على أن يَجمَعوا في عناوين قواميسهم بين لَفظَي «التاريخ» و«الإيتيمولوجيا» رفعاً لكل التباس. من ذلك كتاب ديبوا وصاحِبَيه الذي ذكرنا سابقاً أنه طُبِع منذ سنة 1964 بصيغة: *«القاموس الإيتيمولوجيّ والتاريخيّ للغة الفرنسيّة»، ثم طُبِعَ أيضاً (لاروس 2001م) بعنوان مختصر وهو : "القاموس الإيتيمولوجيّ"*[19]. ومن ذلك أيضًا كتابُ بومْغارْتْني وميناري الذي طُبِعَ (1996م) بعنوان: *"القاموس الإيتيمولوجيّ والتاريخيّ للغة الفرنسيّة"*.

3 ـ مما له صلةٌ بالنقطتين السابقتين المتعلِّقتين بتحديد مفهوم القاموس التاريخي من جهة، وتحديد هدفِه من جهة ثانية، أن نسأل: هل نريدُ لقاموسنا

18 – انظر : الودغيري : **التأريخ لمعجم اللغة العربية...**

19 – وفي سنة 2007 أعيد طبعُه مرةً أخرى بالصيغة الأولى :

Dictionnaire étymologique de la langue française

الذي يُطلَبُ إنجازُه أن يكون قاموساً لغويّاً تاريخيّاً (**ق ل ت**) أم قاموساً تاريخيًا للغة (**ق ت ل**)؟ والفرقُ بين النوعين كما بيَّنتُ في بحث سابقٍ[20]، أن الأول هو في الأَساس قاموسٌ لغويّ عام، موجَّه في العادة إلى الجمهور الواسع من القراء، وغايتُه الأساسيّة هي شرحُ معاني الألفاظ، وتوضيحُ طريقةِ استعمالها بشكل صحيح، ولا يختلف عن سائر القواميس اللغويّة العامة إلا بإضافة عنصر جديد، هو العنصر التاريخي، إلى بقية عناصر التعريف الضرورية المعروفة. وقد ينحصِرُ دورُ العنصر التاريخي في هذه الحالة، في النَّصِّ على تاريخ ظهور الكلمات واستعمالاتها، وقد يَتَضمَّن أيضاً، في تركيز تامٍّ، القَدرَ الضروري من الجانب التأثيلي. وهذا أمرٌ أصبح اليوم تقليداً مُتَّبَعاً ومُقتضىً معمولاً به في أغلبيّة القواميس اللغويّة العامة الحديثة في الغَرب مهما تنوَّعت أهدافُها وغاياتُها، وذلك منذ القرن التاسع عشر كما أَشَرتُ سابِقاً، وإن لم يكن عُنصُراً إلزاميّاً وضروريّاً في كل قاموس لغوي عام[21].

أما الثاني (ق ت ل)، فهو مُوجَّه إلى فئة مَحدودةٍ من القُرّاء، وهي فئةُ الباحثين المُختصّين والمهتمِّين بالبحث في تاريخ اللغة وأُصولها واشتقاقِها وتَغيُّراتها وتطوُّرها ومراحل حياتها، وعلاقاتها باللغات الأخرى. لذلك، فهو ليس قاموساً للمعاني ولا قاموساً تعليمياً أو بيداغُوجِيّاً، إذ ليس من وظائفه تعليمُ طريقة استعمال الألفاظ وحُسنِ تركيبِها. وإنما غايَتُه الأولى والأساسُ، هي التأريخ لتطوُّر ألفاظ اللغة صيغةً ومضموناً، صوتاً ودلالةً. فالتاريخُ هنا هدفٌ مقصودٌ ومطلوبٌ لذاته، وليس مجردَ عنصرٍ فقط من عناصر التعريف المُكَمِّلة كما في النوع السابق. ويدخل ضمن مفهوم التأريخ في هذه الحالة: البحثُ في نَشأة الكلمات ومراحل حياتها من ميلادها وطُفولتها، إلى فترة ازدهارها وقُوَّتها

20 – الودغيري : **التأريخ لمعجم اللغة العربية**...

21 – من القواميس اللغويّة العامة الحديثة التي لم تلتزم بذكر العنصر التاريخيّ بشكل ضروريّ ومنتظِمٍ في كل المداخل، سلسلة قواميس لاروس. عكس سلسلة قواميس روبير (روبير الكبير وروبير الصغير) التي التزمت بذكر العنصر التاريخي بشكل مُنتَظِم.

فكُهولتها وشَيخُوخَتها وضَعفها وتراجُعها أو موتها وانقِراضها، وما تولَّدَ عنها واشتُقَّ منها، سواء في حال استِقرارها في بيئتها الأصلية، أم في حال انتقالها من لغة إلى أخرى، ومن حَقل إلى حقل، ومن معنى إلى معنى، ومن صيغة إلى صيغة، وتَوثيقِ نَسَبها ومَدَى أصالتها وعَراقتها في لغة معيَّنة أو طُرُوئِها عليها. وذلك كُلُّه على الطريقة التي اتَّبَعَتها طائفةٌ من القواميس الغربيّة المتخصِّصة.

ورغم أن لكلٍّ من النَّوعين غايتَه وهدفَه وجُمهورَه وقُرّاءَه، وأن كلَّ واحدٍ منهما مُكمِّلٌ للآخر، فلا شكَّ في أن اللغة العربيّة تَفتَقِر إليهما معاً، ولا أحد منهما يُغني عن الآخر، فإن تمَّ العملُ لأجلهما معاً في آن واحدٍ، ففي ذلك خيرٌ كثيرٌ وخدمةٌ جليلةٌ للغة العربية. وغايةُ ما في الأمر أن كلاً منهما سيحتاجُ إلى خُطةٍ إنجاز خاصَّة، وأن المشقَّة ستكون مُضاعفَةً ولو أنها ضرورية لا مَفرَّ منها في النهاية. لكن من الواضح أننا لو فكَّرنا بمنطق ترتيب الأولَوِيات، لوجدنا أن الحاجة إلى النوع الثاني هي الأكثرُ إلحاحاً في هذه المرحلة، ولاسيما أن جزءاً مُهمًّا من المعلومات والعناصر التاريخيّة والتأثيليّة التي سوف يُوفِّرُها النوعُ الثاني من هذه القواميس، سيُوظَّفُ ويُستغَلُّ في صناعة النوع الأول أيضاً.

4 ـ ثم هناك سؤالٌ آخر: هل نريد لقاموسنا هذا أن يؤرِّخ لكل ألفاظ اللغة العربيّة في كل أزمِنَتها وأمكِنَتها وكلِّ مجالات استِعمالِها ومستوياتها، أم نريد التأريخَ فقط لنوع خاصٍّ أو فئةٍ معيَّنة أو قائمةٍ محدودة منها؟ وبمعنى آخر: هل نريده قاموساً شاملاً ومُستوعِباً بدرجة معيَّنة، أم نريده قاموساً انتِقائياً واصطِفائياً؟ وإلى أيِّ حدٍّ قد يصلُ الاستيعابُ أو درجةُ الانتقاء إن سَعَينا إلى ذلك باعتبار أن فكرة الاستيعاب التامِّ لا يمكن تحقيقُها والوصولُ إليها في أيِّ قاموسٍ كانَ؟ وما هي معاييرُ الانتقاء والاصطِفاء التي سنُضطَرُّ إليها في هذه الحال؟

وهذا سؤالٌ كبيرٌ يمكنُ تفريعُه إلى أسئلةٍ أخرى منها على سبيل المثال لا الحَصر:

4 - 1 ـ هل نريد التأريخَ للعربيّة القديمة (منذ أَقدَم صِيَغها التي وصَلَت إلينا في شكل نُقوشٍ) والحديثة، وما بين المَرحَلتين من مختلف العصور، أم نريد التأريخَ للعربيّة الحديثة فقط؟ وبمعنى آخر: هل نريدُ التأريخ للمُستعمَل الحيِّ من ألفاظ لغتنا العربيّة إلى جانب ما شاخَ منها أو أُهمِلَ وهُجِرَ وسقَطَ من الاستِعمال؟

إنَّ من بين التعريفات المشهورة اليوم لمُعجم اللغة، هو أنه نظامٌ مفتوحٌ على بابين : بابٍ تدخلُ منه الألفاظُ الجديدةُ والمُستحدَثة، وآخرَ تخرجُ منه الألفاظُ والاستِعمالاتُ المتقادِمة التي يقَع تهميشُها والتخلّي عنها لأسبابٍ كثيرة، وأنه لذلك في تطوُّر وتغيُّرٍ مُستَمرَّين. ولقد أصبحت القاعدةُ المُتّبَعةُ في القاموسيّة الحديثة تَقضي بضرورة تَحيين المادة المعجمية في القواميس اللغويّة العامة ومُراجَعتها بين فترةٍ وأخرى، بغاية التخلُّص من الألفاظ المُتقادِمة الساقِطة من الاستعمال، وإدخالِ الألفاظ الحديثة والمُستَجَدَّة التي تُواكِبُ العصر. إذ لا يُعقَلُ اليوم أن تفتح قاموساً لغويّاً عاماً فتَجده مليئاً بالألفاظ العتيقة الغريبة عن لغة العصر وحاجة الناس، وفي الوقت ذاته فارغاً أو فقيراً في جانب الألفاظ الحديثة المُعبِّرة عن الحياة الجديدة وأسماء الأدوات والآلات والأفكار والظواهر والمفاهيم وكلِّ الأشياء الأخرى المُتداوَلة. لكن، هل معنى هذا أن القاموس التاريخيّ عليه بالضرورة أن يتخلَّص من الألفاظ القديمة والمهجورة الخارجة عن دائرة الاستعمال، كما يفعلُ أيُّ قاموس لغويّ عام؟ وهل هو قاموسٌ لمواكبة ألفاظ العصر أم لمواكبة ألفاظ كل العصور ؟

هنالك توجُّهان في الموضوع سلَكَتهما القواميسُ التاريخيّةُ الحديثة، ولكلٍّ منهما غاياتُه ومُبرِّراتُه وأهدافُه. فبعضُها مالَ نحو تدوين كلَّ ما استطاع الوصولَ إليه من الألفاظ مهما كانت وضعيتُها قديمةً أم حديثة، حيةً مُتداولةً، أم توقَّفَ استعمالُها وأصبحت من المَهجور المَتروك. وهذه هي الطريقة التي سلَكَها قاموس

أكسفورد الإنجليزي. وبعضُها الآخر مالَ نحو الاكتفاء بالتأريخ لما هو حَيٌّ وحديثٌ مُتداوَلٌ، وغَضَّ الطرفَ عن الباقي، فلا يتطرَّقُ إليه إلا عند الاقتضاء، أي عندما يكونُ الرجوعُ إليه ضروريّاً للتأريخ للألفاظ الحديثة. وذلك هو التقليد الذي سارَت عليه أغلبيّةُ القواميس الفرنسيّة الصادرة منذ القرن السابع عشر[22]. ومنها قاموس ليطري (1872م)، وقاموس هاتسفيلد (1890م)، وقاموس بلوخ (1932م)، وقاموس روبير التاريخيّ (1992م) الذي اعتبرَ اللغةَ الفرنسيّةَ القديمةَ بمثابة «لغةٍ أجنبية» لا يُرجَعُ إليها إلا عند الحاجة إلى معلوماتٍ ضروريّة لاستِكمال الجوانب الناقِصة في التأريخ للفظ من ألفاظ اللغة الحديثة[23]، و«*ذخيرة اللغة الفرنسية*» (TLF) (1994م)، وغيرها. وأعتقدُ أنه، للخروج من هذه الحَيرة بين الوِجهتين، يمكننا من حيث المبدأُ أن نتبنَّى الطريقتين معاً، فنسعى لوضع قامُوسين تاريخيَّين أحدهما يكون مطوَّلاً ومُستوعِباً لكل ما يُمكن الوصولُ إليه من ألفاظ العربيّة قديمِها وحديثِها، وآخر مختصرٌ ومُقتصِرٌ على الألفاظ الحديثة.

بل هنالك توجُّه ثالثٌ سَلكَه بعضُ القواميس التاريخيّة الغَربيَّة المُختصَرة، وهو إعمالُ مبدإ الاختيار والانتقاء حتى داخل صِنف الألفاظ الحديثة نفسها.

---

22 – هذه الطريقة لم تبتدعها القواميس الحديثة التي أرَّخت للغة الفرنسيّة، وإنما سَنَّها من قبل **قاموسُ الأكاديميّة الفرنسيّة** منذ طبعته الأولى الصادرة سنة 1694م، وكذلك **القاموس التاريخيّ للغة الفرنسيّة** الذي أصدرته هذه الأكاديمية ما بين سَنتَي 1863 و1894م.

23 – جاء في مقدمة هذا القاموس: «موضوع قاموس روبير التاريخيّ هو المفردات الفرنسيّة الحديثة، أما الألفاظ التي اختفت وخرجت من الاستعمال، فلم يقع الاهتمامُ بها إلا من أجل إضاءة جوانبَ تتعلَّق بتطور الكلمات الحيّة. فالفرنسيّةُ القديمة نعتبرها من هذه الناحية لغةٌ أجنبية نستعين بها فقط عند الاضطرار لتوضيح الاستعمال الحديث».

وجاء في مقدمة *"القاموس التأثيلي والتاريخي للغة الفرنسية"* لبومغارتني وميناز: «لم يكن من بين أهداف عملنا أن نجمع بين ألفاظ الفرنسية بدءاً من الفرنسية القديمة إلى فرنسية العصر الوسيط ثم فرنسية القرن العشرين. فالمعجمُ القديمُ الذي اختفَى من حياة اللغة ليس له الحقُّ في الوجود ضمن قاموس اللغة الفرنسية الحديثة. وفي هذه النقطة خالَفنا منهج دوزا وديبوا وميتيران». والمؤلفان يُشيران هنا إلى *"القاموس التأثيلي والتاريخي للغة الفرنسية* الذي ألفه دوزا، ثم أعاد النظر فيه ج. ديبوا وه. ميتيران.

فقاموسُ بومْغارْتني ومينار المُشار إليه سابقاً، اختارَ هذا الطريقَ ووضَّحَ ذلك بأن قال: «لقد آلينا على أنفسنا أن نُميِّز بين ما هو أساسيّ أو جوهريّ من الألفاظ وما هو ثانويّ أو تكميليّ. ولذا، وقع تركيزُ اهتمامنا على الألفاظ الأساسيّة التي رأينا أنها لم تَحتلَّ مكانَتَها الواسعة في هذا النوع من القواميس. وقد أولَينا الاهتمامَ نفسَه للألفاظ الدالة على الأفكار مثل (nation) و(nature)، وكذلك الألفاظ الدالة على بعض الحقائق الثابتة والمؤثِّرة في الحياة الاجتماعيّة مثل: (demoiselle) و(valet) ...» .

4 - 2 ـ هل نؤرِّخ للغةِ كلِّ عصرٍ على حِدةٍ (قاموس العصر الجاهلي ـ قاموس العصر الإسلامي الأول ـ قاموس العصر العباسي ـ قاموس عصر المماليك ـ قاموس العصر الحديث ـ قاموس الفترة المعاصرة ..) كما تَميلُ إلى ذلك بعضُ الآراء، وكما جرى به العَملُ فعلياً في بعض التجارب من قواميس اللغات الأوروبيّة[24]، أم نؤرِّخ للغة كلِّ العصور جملةً واحدة؟. وفي اعتقادي أن هذا لا يمنَع من ذاك. وإذا كان المشروعُ الكبير الذي تُفكِّرُ فيه نُخبةُ الأمة حالياً وتسعى لإخراجه في أسرع وقتٍ ممكن، هو القاموسُ الشامِلُ الذي يُؤرِّخ للغة في عصورها جميعاً، فهذا لا يَمنَعُ من توزيع عملية التنفيذ وتقسيمِها على مراحل مُتَتابِعة ،عصراً عصراً، ومرحلةً مرحلةً. ثم في النهاية تُجمَع الحَصائِلُ الجُزئية لهذه المراحل بعضها إلى بعض، لنصل إلى الحصيلة العامة. وليس شَرطاً في هذه الحال،

24 – من الأمثلة على ذلك في اللغة الفرنسيّة: **قاموس اللغة الفرنسيّة في القرن السادس عشر** (Dictionnaire de la langue française du seizième siècle) لإدمون هوجي (Edmond Huguet)، و**قاموس الفرنسيّة المتوسِّطة: فرنسيّة العصر الوسيط** (Dictionnaire du moyen français) لجرياس وصاحبه (Julien Greimas et T.M.K)، و**قاموس الفرنسيّة القديمة** (Dictionnaire de l'ancienne langue française) لجُودفرُوي (F.Godefroy) الذي جمع فيه اللغة الفرنسيّة من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر الميلادي . وانظر حول بعض التجارب الأخرى في اللغتين الألمانيّة والروسيّة، مقالةَ كلٍّ من عبد الرزاق مسلك بعنوان : **صناعة المعاجم التاريخيّة بألمانيا**، وحميد العزوي بعنوان : **المعجم التاريخيّ للغة الروسيّة**، ضمن كتاب : **ندوة المعجم التاريخيّ للغة العربيّة** 2011م.

من جعل العصر الأول أو الأَقدم للغة هو نقطة البداية في كتابة القاموس، إذ يُمكِن أن تكون نقطةُ البداية من العصر الأخير، أي من الألفاظ المُستعمَلة والمُتَداوَلة في الوقت الراهِن. وكلُّ ما في الأمر هو أن اللغة الحديثة والمُعاصِرةَ فيها كثيرٌ جداً من الألفاظ التي يعودُ تاريخُ ظُهورها إلى عُصورٍ سابِقةٍ قديمةٍ ومتوسِّطة، لكنها استَمرَّت في الوجود والاستِعمال بلا انقطاعٍ إلى وقتنا هذا. فهي قديمةٌ من وجهٍ حديثةٌ من وجهٍ آخرَ. ومُؤرِّخُ المُعجَم سيكون مُضطَرًّا، حين التعرُّض لها، إلى الرجوع خُطواتٍ إلى الوراءِ، باحِثاً عن جذورها ونقطة انطلاقِها في تلك الأزمنة القديمة، ومُتَتَبّعاً مراحلَ تَطوُّرِها إلى آخر لحظةٍ في حياتِها المُعاصرة. ومعنى هذا أن الذي يؤرِّخ للغة الحديثة والمعاصِرة لن يكون في غِنًى عن البحث في تواريخ المراحل السابقة ليستفيد منها ويعتَمِدَ عليها. وكلَّما تَوفَّرَ قدرٌ كبيرٌ منها كان ذلك أَفيدَ له ومُساعِداً في تسهيل مُهمَّته والإسراعِ في إنجازها.

4 - 3 ـ هل نريد التأريخ للعربيّة المكتوبة وحدَها أم للمكتوبة وغيرِ المكتوبة على حدٍّ سواء؟ وبعبارة أخرى: هل نؤرِخُ للفصحى دون غيرِها، أم نُضيفُ إليها اللهجاتِ والعاميّات على اختلاف أزمِنَتِها وأمكِنتِها في مختلف بيئاتها العربيّة؟ وما مفهوم الفصاحة وما هي معاييرها في هذه الحال؟ وفي ذلك كلامٌ كثيرٌ شَرَحناه وفَصَّلناهُ في غير هذا المكان[25].

4 - 4 ـ هل نريد التأريخَ لكل أنواع الألفاظ اللغويّة من ألفاظ عامة وأسماء أعلام ومُصطَلحات عِلميّة وتقنيّة وفَنّيّة، أم نريد الاقتصارَ على الألفاظ العامة دون غيرها من أسماء الأعلام والألفاظ التِّقنيّة والعِلميّة؟ أم نؤلِّف قواميسَ تاريخية مختَصَّة بكل نوع من الألفاظ وهو أمرٌ ممكن ومفيدٌ ومُحتاجٌ إليه أيضاً؟

25 – راجع حول هذه النقطة بالذات بحثَنا المنشور ضمن أعمال ندوة المعجم العربيّ التاريخيّ التي نظمتها جمعية المعجمية العربيّة بتونس سنة 1989م بعنوان: **قضية الفصاحة في القاموس العربيّ التاريخيّ**.

والذي دَأَبَت عليه أغلبيةُ القواميس التاريخيّة الغربيّة ابتداءً من *"القاموس التاريخي"* للأكاديميّة الفرنسيّة ـ وهو من أقدم القواميس التاريخيّة الأوروبيّة ـ هو الاكتفاءُ بألفاظ اللغة العامة المُشترَكة، وتركُ ما عدا ذلك من أسماء الأعلام واصطلاحات العلوم والفنون والتِّقنيّات، ولاسيما ما كان منها مُوغِلاً في الخُصوصيّة، ليُوضَع في كُتُبٍ مختصَّة. جاء في مقدمة هذا القاموس الصادر جُزؤُه الأول سنة 1865م ما ترجمتُه: «إن اللغة التي انكبَّت الأكاديميّةُ على تدبيج تاريخها، هي لغةُ الحياة العامة ولغةُ الأدب. أما غيرُها من الألفاظ الخارِجة عن هذه اللغة العامة المشترَكة بين الجميع، من قَبيل لغة العلوم المختلفة والمِهَن والصنائع بأنواعها، فهي اصطلاحاتٌ خاصةٌ يكونُ لها عادةً معنىً واحدٌ ثابتٌ لا يتغيَّرُ وليس لها معانٍ فرعيّةٌ، وبالتالي لا يكون لها تاريخٌ. ومن أجل ذلك، يُستحسَنُ أن يُحتفَظَ بها في قواميس متخصِّصةٌ. هذا هو الموقفُ الذي اتخذته الأكاديميّةُ من سائر الألفاظ العلميّة والتِّقنيّة بصفة عامة، إلا ما كان له استعمالٌ أدبيٌّ [أي رائِجٌ في اللغة الأدبيّة العامة] وجرَى به الاستعمالُ العام».على أن هذا الموقف من أسماء الأعلام والاصطلاحات ظهرَ قبل ذلك في القواميس اللغويّة العامة الغربيّة منذ القرن السابع عشر، وأشهرُها قاموس الأكاديميّة الفرنسية منذ طبعته الأولى سنة 1694م[26]. بل لقد وجدنا هذا التوجَّه واضِحًا منذ قاموس ريشليه الصادر سنة 1680م[27]، الذي اعتاد مُؤرِّخو الصناعة القاموسيّة الفرنسيّة

26 – جاء في مقدمة هذه الطبعة الأولى من الكتاب : «إذا كانت الأكاديميّة قد أهملت اصطلاحات الفنون والعلوم وأسقَطَتها من قاموسها، فإنها لم تجد فائدةً في تطبيق هذا الإهمال على ما تحوَّل من تلك الاصطلاحات إلى ألفاظ عامة وأصبح جزءاً من لغة الخطاب العادي ومُستعملاً في تعبيرات مجازيّة...». لكن الأكاديميّة أصدرت فيما بعد (1842م) **تكملة** للطبعة السادسة من قاموسها اللغويّ العام بعنوان: Complément du dictionnaire de l'académie، فتضمَّنت عدداً كبيراً من الألفاظ الاصطلاحيّة والتقنيّة.

27 – أعلن بيير ريشليه Pierre Richelet هذا الموقفَ من الألفاظ التقنيّة منذ عنوان كتابه الذي أكد فيه أنه سيقتصر على ألفاظ الفنون والعلوم الأكثر شهرة. فقد جاء هذا العنوان الطويل على النحو الآتي :

Dictionnaire français, contenant les mots et les choses, …. Avec les termes les plus connus des arts et des sciences. Le tout tiré de l'usage et des bons auteurs

على اعتباره أولَ قاموس لغويٍّ حقيقيّ، من نوع القواميس العامة الأُحاديّةِ اللغة، ظهرَ في تاريخ اللغة الفرنسيّة كله[28]. فصار هذا المنهجُ ـ بعد ذلك ـ تقليداً مُتّبَعاً في القاموسيّة الفرنسيّة والغربيّة عموماً، مع استثناءات قليلة منها كتاب فيروتْيير[29]. وهو التقليدُ نفسُه الذي كان سائداً في القاموسيّة العربيّة منذ نَشأتها على يد الخليل بن أحمد في *"كتاب العين"* (ق2هـ / 8م)، وأصبح أمراً مُتعارَفاً عليه طيلةَ القرون اللاحقة في كل القواميس العامة للغة العربيّة منذ بدايتها إلى العصر الحديث، إلا ما شَذَ عن ذلك وهو قليلٌ جداً[30].

والموقفُ السليم فيما يتعلَّق بهذه النقطة، هو عدمُ التطرُّف في هذا الاتجاه أو ذاك. سواء بالنسبة للقاموس اللغويّ العام أم القاموس التاريخي للغة. فليس من المقبول إبعادُ كلِّ الألفاظ التِّقنيّة واصطلاحات العلوم إبعاداً نِهائيّاً، وتامّاً، ولا

= = (قاموس فرنسي يشتمل على الكلمات والأشياء ... مع ألفاظ الفنون والعلوم الأكثر شهرةً. والكلُّ مأخوذٌ من اللغة المُستعمَلة ومما هو واردٌ لدى أحسن المؤلِّفين).

28 – اعتاد مؤرخو القاموسيّة الفرنسيّة على اعتبار هذا الكتاب أولَ قاموس أحاديّ اللغة في تاريخ الفرنسيّة، رغم كونه مسبوقاً ببعض القواميس التأثيليّة مثل كتاب ميناج (1650م) وكتاب الأب فيليب لاب (1661م) المذكورين من قبل.

29 – كتاب أنطوان فيروتيير Antoine Furetière طُبع سنة 1690م بعنوان طويل جاء على النحو الآتي:
«Dictionnaire universel ,contenant généralement tous les mots français tant vieux que modernes, et les termes de toutes les sciences et des arts …»

(= قاموس عالميّ يشتمل بصفة عامة على كل الكلمات الفرنسيّة سواء كانت قديمة أم حديثة، وكذلك كل مصطلحات العلوم والفنون). وقد كان فيروتيير من أعضاء الأكاديميّة الفرنسيّة المعارضين لفكرة إهمال الألفاظ التقنيّة واصطلاحات العلوم، فحاول إصدارَ كتابَه هذا قبل ظهور قاموس الأكاديميّة الذي طبع بعده بأربع سنوات.

30 – كان **القاموس المحيط** للفيروزبادي أبرزَ مثالٍ على هذه الاستثناءات التي لم تلقَ تجاوُباً وقَبولاً من فئة عريضة من نُقّاد الصناعة القاموسيّة القدماء والمحدَثين. وأشهر من رفع سلاحَ المقاومة ضد تيار الفيروزبادي الذي تجرّأ على خَرق العُرف المُتبَع بإدخاله أسماء الأعلام البشرية والجغرافية واصطلاحات العلوم والفنون وحَشرها ضمن الألفاظ العامة، هو أبو عبد الله محمد بن الطيب الشرقي الفاسي في حاشيته الشهيرة على القاموس، ومن المتأثِّرين به من المعجميّين المتأخرين أحمد فارس الشدياق في كتابه الشهير: **الجاسوس على القاموس** . وراجع في الموضوع كتابنا: **قضايا المعجم العربي** ....

إدخالُها جميعاً على وجه العُموم والشُّمول. فهناك ألفاظٌ من هذا النوع شاعَ استعمالُها في اللغة العامة المشترَكة ولم تعد مقصورةً على أهل الفنون والحِرَف والعلوم والتِّقنيّات، وهذا لا معنى لغضِّ الطرف عنه أو تَحاشيه وتَهميشِه، وهناك النوعُ الآخر الذي ظلّت معرفتُه مقصورةً على دائرةٍ ضيِّقة من مُستَعمِليه في علم أو فنٍّ أو تِقنيّة معيّنةٍ، وهو ما اتفقَت القواميسُ اللغويّة العامة على رفضه وأوكَلَت أمرَه إلى القواميس التخَصّصيّة. لكن هذا الموقف المعتدل الذي اتخذته القواميسُ اللغويّةُ العامة، ليس مُسلَّماً به ولا مُبرَّراً عند جميع مُنَظِّري القاموسيّة التاريخية. إذ هناك من يرى أن التأريخَ لمعجم لغة معيَّنة لا يكون كاملاً إلا بإدخال جميع أنواع الألفاظ دون استثناء، ما كان تِقنيّاً منها وما كان مُشترَكاً، خاصّاً كان أم عامّاً. فالتأريخ لمعجم اللغة سيظلُّ ناقِصاً إذا لم يتطرَّق لكلِّ لفظٍ من ألفاظِ تلك اللغة سواء كان عاماً أم خاصاً، مُشترَكاً أم غيرَ مُشترَكٍ، قديماً أم حديثاً، حَيّاً مُستعمَلاً أم مَهجوراً مَتروكاً.

4 - 5 - هل نريد القيامَ بمَسحٍ تامٍّ لكل ما كُتِب بالعربية قديمًا وحديثاً في كل المجالات والعصور والبيئات وبكل المُستوَيات، أم ينبغي اللُّجوءُ إلى طريقة الانتِقاء والاختيار للمادة المعجميّة من مصادر محدَّدة في القديم والحديث، نَنتقيها بعنايةٍ مَخصوصة وبمعايير معيَّنة يقعُ الاتفاقُ عليها؟ ولكلٍّ من الاتِّجاهَين دُعاةٌ ومُناصِرون وحُجَجٌ وأدِلةٌ لها وَجاهتُها ومنطقُها المقبولُ.

ونحن وإن كنا ـ مَبدئياً ـ من أنصار الرأي الأول في هذه النقطة، وحُجَّتُنا منذُ البداية أننا مع مبدإ الاستيعاب قدرَ المُستطاع، ولو اقتضى ذلك البُطءَ في إنجاز العمل وإخراجَه على مراحلَ، إلا أن الفراغَ التامَّ الذي تعرفُه اللغةُ العربيّةُ في هذا الجانِبِ، وانعدامَ أَيِّ نوعٍ من القواميس التاريخيّة الذي يسدُّ هذا الفراغَ ولو جُزئيّاً، قد يفرضان علينا الخُضوعَ مَرحَليّاً لأحكام الظروف الاستِعجاليّة الأكثرِ إلحاحاً في هذا الوقت، والقَبُولِ بفكرة انتقاءِ المصادر وتقليصِ حدودِ

المُدوَّنة، عملاً بقاعدة الحَسَن عدوُّ الأحسَن. وهذه الخُطةُ القريبة الأجَل لا تمنَع بحالٍ أن تكون بجانبها خطةٌ أخرى بعيدة المدَى تَهدفُ إلى مُواصلة الحَفر في أركيولوجيّة اللغة طولاً وعرضاً حتى يتمَّ استيفاءُ كلِّ الطاقات والإمكانيّات والوصول إلى كل أنواع المصادر المُتاحة والمُمكِنة حتى تلك التي سوف يُتيحهُا ويَكشِفُ عنها المستقبلُ، ولعل هذا هو الهدف الذي رسَمَه واضِعُو مشروع **ذخيرة اللغة العربيّة** (أَنتِرت العربية). فتحقيقُ مشروع هذه الذخيرة سيضَعُ أمامنا المادةَ اللغويّة الكافيّة لإنجاز القاموس التاريخيّ في نسخته الوافيّة المُستَوفِيّة.

5 ـ وفيما إذا استقرَّ الرأيُ على أن يكون القاموسُ التاريخيُّ شاملاً لمختلف العصور والحِقَب التاريخيّة، فمِن أين يكون البدءُ؟ هل من نقطة معيَّنة في العصر الحديث، ثم نَنْحَدِر نُزولاً إلى أعمق الطبقات الجيولوجية الضارِبة في جُذور الماضي السَّحيق؛ أم نريد العكسَ، أي: البدءَ بأقدم طبقات العصور المعروفة إلى أن نُلامِسَ القِشرةَ الظاهريّةُ لهذا التاريخ التطوُّريّ فنقفَ به عند نقطة معيَّنة من الاستعمال الحديث؟ وكلُّ طريقة لها مُبرِّرُها ودُعاتُها وأنصارُها. (راجع ما قُلناه في الفقرة 4 ـ 2 ـ السابقة).

6 ـ وسواءٌ أكان هذا القاموسُ مُستوعِباً أم غيرَ مُستوعِبٍ، شاملاً لكل الحِقَب والألفاظ أم كان خلافَ ذلك، لا بد أن نسأل أيضاً: هل نريدُه في حَجمه ومعلوماته ومادَّته المعجميّة وتَعريفاته وشواهِدِه وتحليلاته ولغته الواصفة، أن يكون مختصَراً ومُركَّزاً على طريقة عدد من القواميس التاريخيّة الغَربيَّة المختصَرة التي ظهَرَت في أوروبا في حجم كتاب الجَيب (ومنها قاموس أُوسكار بلوخ المشار إليه قبلاً، وكتاب جاكلين بيكوش، وكتاب جان ديبوا وصاحبَيه، وسيأتي الحديثُ عنهما لاحقاً)، أم نُريده تاريخاً مكتوباً بطريقة موسوعية مُتَضَمِناً أكثرَ ما يُمكن من المعلومات وأدقِّ ما يُستطاعُ الوصولُ إليه من التفاصيل عن سائر أحوال الألفاظ العربيّة في جميع أطوار حياتها على طريقة *قاموس أكسفورد*

الإنجليزيّ، وكتاب والتر فُون وُرتبُرغ (Walther Von Wartburg) الذي أرَّخ فيه للفرنسيّة بشكل موسَّع جداً[31]، أم كتاباً متوسِّطاً بين الطرَفين مثل الكتاب المعروف بروبير التاريخيّ؟ فكلّ ذلك ممكنٌ ومطلوبٌ ومرغوبٌ ومُحتاجٌ إليه. وكلُّ هذه الأنواعُ من القواميس التاريخية (المُطوَّلةُ والمُعمَّقة، والمختصَرةُ، والمتوسِّطةُ الحجم والمَضمون) موجودٌ ومعروفٌ في مكتبة القواميس التاريخيّة الغربيّة التي عَرفَت ثراءً كبيراً وتنوُّعاً واسعاً[32]. ومن الخير للعربيّة أن تُفتَح أبوابُ المُنافَسة في خدمتها وتَحفيزِ العلماء والباحثين المعجميّين على الإكثار من التَّجارِب المتنوِّعة التي سوف يُغنِي بعضُها بعضاً، ولا يَستَغني بعضُها عن بعضٍ.

7 ـ ومهما كان نوعُ هذا القاموس أيضًا ـ من بين الأصناف المذكورة ـ لا بد أن نعرف النظامَ الذي سيقوم عليه ترتيبُ مداخله الفرعية: أعَلى أساسٍ اشتقاقي، ألفبائيّ، تاريخيّ، أصليٍّ وفَرعيّ، أم على أسُسٍ أخرى؟ ذلك أمرٌ فيه نقاشٌ نظريٌّ وطُرُقٌ عمليةٌ يُختارُ بينها، لكن الحسمَ فيها ليس من العوائق التي تُثبِّطُ العملَ أو تَحُول دون إنجازه.

إذن، هذه عيِّنةٌ من أسئلةٍ أساسية لا بد من الإجابة الجماعية عنها لتحديد مُواصَفات القاموس التاريخيّ الذي نُريدهُ، بما في ذلك أهدافُه ونوعُه وحجمُه ومادتُه ومصادرُه وطريقةُ صيّاغته. وهذه المواصفات هي التي ترسُمُ الخُطَّة المُناسِبة. ولو استَطعنا أن نُحدِّد إجاباتنا عن الأسئلة المطروحة بكل عناية ودقة، لكانت خُطةُ الإنجاز تامةَ الوضوح، وخريطةُ الطريق بيِّنةَ المعالِم.

---

31 – بدأ العمل في مشروع هذا الكتاب الضخم المسمى: (القاموس الإيتيمولوجيّ للفرنسيّة: Französichen etymologischen wörteburch) (ويُرمزُ إليه اختصاراً بكلمة: FEW) منذ سنة 1922م وانتهى سنة 2002م في 25 جزءاً وحوالي 17000 صفحة ورقية، وما تزالُ الإضافاتُ والمُلحقاتُ مستمِرةً..

32 – هناك قواميس كثيرة توسَّعت في دراسة تاريخ أنواعٍ بعينها من الألفاظ، كما فعل بيير غيرو في كتابه : Dictionnaire des étymologies obscures. بل هناك من انكَبَّ على دراسة تاريخ لفظٍ بعينه مثلما فعل المعجميّ الفرنسيّ المعروف آلان ري في كتاب له بعنوان Révolution : Histoire d'un mot (1989).

وفي الختام، أقدِّم نموذجاً مُختصَراً لخطةٍ مقترحةٍ لإنجاز القاموس العربيّ التاريخيّ بناء على وجهة نظر خاصة مُستخلَصة مما تقدَّم عَرضُه من الأسئلة المطروحة.

ـ 3 ـ

نموذَج مختصر من
مُواصفات القاموس التاريخيّ العربيّ وخطة إنجازه

1 ـ تحديد الهدف :

1 ـ 1 ـ الهدف العام:

إنجاز قاموس يؤرخ لمعجم اللغة العربيّة عبر عصورها المختلفة بدءاً من وقتنا الحاضر (سنة 2012م مثلاً)، إلى أقدم عهودها المعروفة.

1 ـ 2 ـ الأهداف الفرعية:

ـ أن يكون العملُ موجَّهاً لجميع المهتمِّين ـ مختصِّين وغيرِ مختَصِّين ـ بمعرفة كلِّ شيءٍ عن استعمالات الألفاظ العربيّة وتاريخها وتطوُّرها شكلاً ومضموناً، دلالةً وصوتاً، حاضراً وماضياً، باعتبارها الوعاءَ الذي احتفظ بجميع التفاصيل الصغيرة عن تاريخ الحضارة العربيّة الإسلاميّة في جوانبها الثقافيّة والعلميّة والأدبيّة والاجتماعيّة والدينيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والصناعيّة والتجاريّة، وبكلِّ ما فيها من فنون وعادات وتقاليد وأَساليبَ في العيش والسُّلوك والمَأكَل والمَشرَب والمَلبَس والمَسكَن والفَرَح والحُزن في السِّلم والحَرب، ومفاهيم فكرية ومضامين فلسفية، وأدوات وإنجازات في كل المجالات العمليّة والنظريّة التي تمسُّ الإنسان الذي استعمل هذه اللغةَ وأبدعَ فيها وعبَّرَ بها عن أدقِّ خَلَجات نفسه ومشاعرِه وأحاسيسِه ونَبضاتِ قلبه وكلِّ آماله وآلامه وسعادته وشقائه. فكلُّ شيءٍ عرَفَه الإنسانُ أو اخترَعَه أو رآه أو

سَمِعه أو لامَسَه، سَمَّاه بألفاظٍ من اللغة، وكلُّ شيءٍ أحسَّ به أو فكَّرَ فيه عبَّرَ عنه باللغة. وكلُّ شيءٍ أراد إبلاغَه إلى الآخَر صَوَّره له وأوصَلَ فكرتَه إليه باللغة.

ـ أن يكون الكتابُ في حَجمه ومحتواه متوسِّطَاً لا موسوعيّاً، مُراعاةً للمرحلة الاستِعجالية التي ينتظرُ فيها الجميعُ صُدور هذا القاموس التاريخيّ في أوجَز وقتٍ مُمكِنٍ لملءِ الفراغِ الكبير الذي تعيشُه العربيّةُ في هذا المجال. وهذا يقتضي تركيزَ المعلومات وتلخيصَها، والاقتصارَ على المهم منها والضروريّ، والاقتصاد في الشواهد والأمثلة، والإكثارَ من الرموز الاختِصاريّة، وترك التحليلات الموسوعيّة والتفصيليّة لإخراجها في نسخة أخرى مُطوَّلة. ويمكن لهذا العمل نفسِه أن يُختَصَر بدوره ويُضغط حجمُه، وتُرَكَّز معلوماتُه بدرَجاتٍ معيَّنة ليُوجَّه إلى فئة متوسِّطة الثقافة من القراء، ويُحذَف منه الكثيرُ أو القليلُ من الجُزئيات التي لا تحتاجُ إليها الفئةُ العامة من القراء أو الفئة المُستعجِلة التي تهمُّها النتيجةُ أكثرَ من التفاصيل وما فيها من شواهد وأدلة وحُجج ونقاشات.

ـ أن يكون قاموساً تاريخيّاً لغويّاً عاماً، بمعنى أن يجمع بين مزايا القاموس اللغويّ العام والعناصر التاريخيّة والإيتيمولوجيّة، من جهة، وبين الوصف الآنيّ للغة ووصفها عبر مراحلها التاريخيّة.

ـ أن لا يجعل غايتَه شرحَ معاني الألفاظ إلا بالقدر الضروريّ، ولا الخوضَ في طريقة استِعمالِها، لأنه ليس من قواميس المعاني أو القواميس الوظيفيّة أو البيداغوجيّة، ولكنه في المقابلِ لا بد أن يؤرّخ لكل معاني الكلمة التي لا تَنفصِل عن سياقاتها.

ـ أن تتحقَّقَ فيه كلُّ الشروطُ والعناصرً المنصوصُ عليها في تعريفنا السابق لمفهوم القاموس التاريخيّ.

2 ـ المدوَّنة المعجمية:

ـ أن يتضمَّن القاموسُ كلَّ ألفاظ العربيّة الفصيحة المُشترَكة ولغةِ اللهجات القديمة والعاميَّة المُفصَّحة التي تداوَلتها القواميسُ اللغويّةُ العامةُ،

والألفاظ المولَّدة التي أحدثَتها مَجامِعُ اللغة أو استعمَلَها كبارُ كُتّاب العربيّة، قديمةً كانت هذه الألفاظُ أم حديثةً، أصيلَةً في العربيّة أم دخيلةً ومُعرَّبةً، مهجورةً أو مُتداولةً، في أيّةٍ بيئةٍ من البيئات التي انتشَرت فيها اللغةُ العربيّةُ، بشَرط أن تكون واردةً في نصٍّ مكتوب وموثَّقٍ، وأن لا تُجافي القواعدَ المعروفة في الاشتقاق والتوليد والوضع.

ـ التأريخُ للألفاظ الفصيحة وتتبعُ تطوُّر صِيَغها ودلالاتها لا يَمنعان بحال من الاستفادة من المُعطَيات التي تُتيحُها دراسةُ ما آلتْ إليه استعمالاتُها في اللهجات الحديثة بمختلف البلدان العربيّة، وكذلك ما آلت إليه عند انتقالها إلى لغات أجنبيّة.

ـ يُقتَصرُ في هذا القاموس التاريخيّ العام على الألفاظ العامة والمشهورِ المتداوَلِ من الألفاظ التِّقنيّة واصطلاحات العلوم والفنون غيرِ المُوغِلةِ في التخصُّص. ويُترَك التأريخُ للباقي من الألفاظ الخاصة والتقنيّة والاصطلاحيّة الدقيقة للقواميس التخصُّصيّة في مختلف العلوم والفنون والتِّقنيّات[33].

ـ يُستبعَدُ من هذا القاموس ما كان من أسماء الأعلام البشرية والجغرافيّة والحيوانيّة المُرتَجلة والمتأصِّلة في الدلالة على العلَميّة ولاسيما الأعجميّ منها، إلا ما دعَت الضرورة إليه[34]، ويُبقى على أسماء الأعلام المنقولة.

---

33 – يمكن تقسيمُ الألفاظ التقنيّة والاصطلاحيّة إلى ثلاث فئات: الأولى : ذات وجهين، فهي اصطلاحيّة من وجه وعامة من وجه (مثل : نحو ـ إعراب ـ نصب ... الخ)، والثانية : لها معنى اصطلاحيّ وتقنيّ فقط لكنها أصبحت مشهورة متداولة وصارت بمنزلة الألفاظ العامة (مثل : أوكسيجين ـ كربون ـ هيدروجين .. الخ)، فهذه تُلحَقُ بالأولى. وهناك الفئةُ الثالثة وهي الألفاظ المُغرِقة في الخصوصيّة، وهي الحالة المطلوبُ استبعادُها من مدونة القاموس التاريخيّ العام.

34 – هناك من هذا القبيل أسماء الأنبيّاء والرُّسُل والملائكة وبعض المدن والمواقع المشهورة التي أصبحت جزءاً من تاريخنا وحضارتنا كفلسطين ودمياط ودمشق ولبنان وطرابلس ومراكش .. الخ. فنحن لا نرى بأساً من إدخالها في زمرة الألفاظ التي يشملها ولو بشيءٍ من الاختصار والتركيز.

3 ـ مصادر المدوَّنة :

ـ تُستخرَجُ المادةُ اللغويّة التي تَتكوَّنُ منها مداخلُ القاموس، من النصوص المكتوبة على الورق (مطبوعة أو مخطوطة) أو النقوش أو الحوامل الرَّقميّة، من اللغة المشتركة القديمة والحديثة بما فيها اللغة الحَيَّةُ المُستعملةُ في وسائل الإعلام المنطوقة والمسموعة والمكتوبة، وفي المسرَح والأفلام والروايات والمُحاضراب والمؤتمرات والمُنتَدَيات والخُطب السياسية والدينية والاجتماعية، والمدرسة والجامعة.

ـ يمكن في المرحلة الأولى الاقتصارُ على قائمة محدَّدة ومُختارةٌ بعناية فائقةٍ من المصادر، بشرط أن تكون ممثِّلةً لمختلف عصور العربيّة وحقولها ومجالات استعمالها وعلومها وفنونها وآدابها وبيئاتها. وفي مقدمتها القواميسُ اللغويّة العامة والخاصة والدواوين الشعريّة والمجموعات الأدبيّة والتاريخيّة والجغرافيّة وعلوم القرآن والفقه والحديث ومختلف العلوم والفنون.

ـ في الوقت ذاته تستمرُّ عمليةُ الجَرد والمسح والتَّخزين لكل ما أمكنَ الوصولُ إليه من كتُب ومجلات وجرائد في كل العصور للوصول في النهاية إلى (ذخيرة اللغة العربيّة) أو موسوعة ضخمة لكل ألفاظ اللغة تكون بمثابة أكبر بَنك للألفاظ وأكبر خَزّان للمعلومات المفصّلة عنها، ومنها تَمَتَحُ كلُّ أنواعِ القواميس والموسوعات.

ـ هناك قائمة طويلة من المصادر الأساسية العربيّة (ألفاظ القرآن الكريم ـ ألفاظ الحديث النبوي ـ قواميس لغويّة قديمة وحديثة ـ عشرات المصادر الدينيّة والأدبيّة واللغويّة والتاريخيّة والدواوين الشعريّة ـ موسوعات مختلفة ...) تمَّت حَوسبَتُها أو مَسحُها ضَوئياً. ومن الضروري اعتمادُها، لكن، مع إعمال الحَذَر مما فيها من أخطاء وتحريفاتٍ. بل هنالك مُدوَّنات عربيّة حديثة مفتوحةٌ على الشابِكة، ينبغي الاستفادةُ منها بعد مراجعتها والتأكّد من صحة معلوماتها

وتصحيح أخطائها. وبعضُ هذه المدوَّنات قطَع أشواطاً مهمة في القدرة على التخزين والاسترجاع مثل : ***«المدونة اللغوية العربية لمدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنيّة»*** التي دُشِّنت في شهر مارس 2012م، وتشتمل على 700 مليون كلمة. ومنها : ***«مدونة المكتبة الإسلامية»*** الإلكترونية الموجودة على موقع (إسلام ويب)، وتحتوي حالياً على أكثر من 1600 عنوان من مختلف أمهات المصادر في سائر العلوم الإسلامية العربيّة وخاصة علوم الحديث، ومنها مدونة : ***«المكتبة: للكتب العربيّة والإسلاميّة»***، وتحتوي حالياً على 2404 عناوين في مختلف العلوم كلها مُحوسبة وقابلة لاسترجاع ألفاظها. ومنها : موقع : ***«الباحث العربي»***[35]. وهو قاموس عربيّ ـ عربيّ إلكتروني، يحتوي على المادة اللغوية المضمَّنة في القواميس الخمسة التراثيّة الكبرى(الصحاح ـ لسان العرب ـ القاموس المحيط ـ العباب الزاخر ـ مقاييس اللغة)[36]. ومن أهم هذه المدونات أيضاً : ***«الموسوعةُ الشعريّة»*** التي أُنجزها المجمَّع الثقافيّ في أبي ظبي، وتحتوي على 2.400.000 بيت شعريّ (حسب طبعة 2003). وغير ذلك من المدوَّنات والقواميس القديمة والحديثة والمصادر المُحَوسَبة التي نتوفَّر على قائمة طويلة بها. والاستعانةُ بها ستوفِّر وقتاً كبيرًا وثميناً.

4 ـ الإنجاز والمراجعة:

ـ إنجاز برامج حَوسَبية مخصَّصة لمسح النصوص المطلوب تفريغُ ألفاظها على حوامل رقمية مسحاً ضوئيّاً مع ضرورة التمكُّن من استرجاعها كلمةً كلمةً مع تراكيبها وسياقاتها المختلفة وتَعداد مراتِ تَكرارها في كل نص بالاستفادة من طريقة القواميس المُحَوسبة الموجودة.

35 – انطلقت هذه المدونة سنة 2007م، ورئيس تحريرها رائد نعيم من ألمانيا.

36 – ومعلوم أن **لسان العرب** يحتوي في أحشائه على خمسة قواميس أخرى وهي: تهذيب اللغة للأزهري ـ المحكم لابن سيدة ـ الصحاح للجوهري ـ حواشي ابن بري على الصحاح ـ النهاية في غريب الحديث لابن الأثير. كما أن **مقاييس اللغة** يستمد مادته المعجميّة أساساً من قواميس ونصوص معجميّة شهيرة مثل: كتاب العين للخليل ـ الغريب المصنف لأبي عبيد ـ كتاب المنطق لابن السّكيت ـ الجمهرة لابن دريد.

ـ يقوم على عمليتَي المسح الضوئي للنصوص واسترجاع ألفاظها كلمةً كلمةً، تقنيّون متخصِّصون تحت إشراف أشخاص من اللجنة المكلفة بوضع القاموس. وبعد أن يتم مَسحُ نصٍّ من النصوص يُعهَد مباشرةً إلى فريق تقني آخر بمراجعة عملية المسح والاسترجاع للـتأكد من صحتها ودقّتها وسلامتها من أي خطإٍ تقنيّ.

ـ تُراجع النصوصُ المنسوخة مراجعةً علميةً لغويةً من قِبَل متضلّعين باللغة العربيّة للتأكّد من صحَّتها اللغويّة ونسبتها الحقيقيّة إلى مصدرها الأصليّ ومؤلّفها وتاريخ إنتاجها.

ـ يتمُّ تخزينُ النصوص والمواد اللغويّة المُضمَّنة فيها مما تمَّت حوسبتُه في قاعدة رقميّة خاصة أو بَنك معجميّ مركزيّ، مُرتبةً ترتيباً ألفبائياً سهلاً لإمكانية الرجوع إليها في كل حين.

ـ يمكن، بجانب العمل الآليّ في جرد الألفاظ والاستعمالات، الاستعانةُ بنظام الجُذاذات اليدويّة وتكليف أشخاص مَوثوقين بتفريغ ألفاظ مجموعة من مصادر معيَّنة. مع وضع نموذج موحَّد للجذاذات المطلوب استعمالُها.

ـ يمكن التعاونُ مع الشركات التي قامت بإنجاز مدوَّنات عربية مُرَقمَنة على أساس تزويدها بالخِبرة العلميّة المطلوبة والإشراف العلميّ لتتولّى هي نفسُها إعادةَ مسح المصادر والكتب المطلوبة وإعادة تخزين مادتها اللغويّة ورَقمَنتِها وفق النموذج الموحَّد الذي تضُعه اللجنة المُشرفة على إنجاز القاموس التاريخيّ.

ـ يمكن الاستعانةُ بمتطوِّعين من باحثين متوفّرين على الأهليّة المطلوبة للقيّام بعملية الجرد والمسح الضوئيّ واليدويّ والتخزين.

ـ تتشكلُ فِرقٌ علميّة موزَّعة على عواصم البلدان العربيّة مُكوَّنة من علماء وباحثين مختصّين ومُؤهَّلين ويُعهدُ إلى كل فرقة منها ـ تحت إشراف مسؤول ـ بتحرير المادة المعجميّة لعدد من الحروف حسب خُطة موحَّدة وجُذاذات

نموذجيّة تُعِدُّها الهيئةُ العلميّةُ المُشرِفة. مع تحديد الأجل النهائيّ لإنجاز العمل في وقته المحدَّد[37].

ـ تُرسَلُ المادة العلميّة المُنجزَة من قبل كلِّ فريق إلى اللجنة العليا المركزيّة لمراجعتها وإبداء رأيها فيها. وبعد الموافقة عليها يتمُّ تخزينُها في برنامج حاسُوبيّ خاص.

ـ يمكن على الفَور، لا على التَّراخي، الشُّروعُ في تَخزين ما توفَّرَ من مادةٍ مُعجميَّة اعتماداً على ما هو موجودٌ لحدِّ الآن من مدوَّنات معجميّة مُستخرَجةً بشكلٍ علميّ من عدد كبير من النُّصوص العربيّة القديمة والحديثة. وليست هذه المادةُ بالشيء القليل أو الهيِّن. وهي تشمل ـ في جملة ما تشتمل عليه :

1) معجم ألفاظ نصَّ القرآن الكريم الذي يُشكِّل في حدِّ ذاته جزءاً مهمّاً من العربيّة الفصيحة التي تُحسَبُ تاريخيّاً على العصر الجاهلي، رغم أن أغلبية ألفاظ هذا المعجم القرآنيّ ما تزالُ مُستعمَلةً في الفُصحى المُعاصِرة.

2) معجم ألفاظ الحديث النبويّ الشريف سواء تلك التي وضع فهارِسَها وقوائمَها المستشرقون، أو تلك المنشورة حديثاً في عدد من المدوَّنات الحديثة المُرَقمَنة[38].

3) ألفاظ الفقه الإسلامي وقد نُشرت منها مجموعاتٌ كثيرة كما أشرنا من قبل[39].

---

37 – سبق لاتحاد المجامع العربية في اجتماعه السنوي في شهر أبريل (نيسان) 2010م أن وزّع القسم الأوّل من قائمة مصادر المعجم التاريخيّ (148 عنواناً) الخاصة بالعصر الجاهلي، على خمسة مجامع عربيّة (سوريا ـ الأردن ـ ليبيا ـ السودان ـ القاهرة). من أجل إدخالها إلى الحاسوب، وجاء في التقرير السنويّ لمجمع اللغة العربيّة الأردنيّ. لسنة 2010م، أن هذا المجمع أنجزَ العملَ المطلوبَ منه بإدخال 30 عنواناً من دواوين الشعر الجاهلي وطباعتها وتدقيقها وإعادة إرسالها إلى اللجنة المختصة بالمعجم التاريخيّ في اتحاد المجامع.

38 – منها الموسوعة الذهبية لألفاظ الحديث النبويّ الشريف وعلومه، وتضم وحدها 128 مصدراً من أمّهات المصادر في مختلف علوم الحديث).

39 – منها مجموعة شركة **حرف** المسماة : **جامع الفقه الإسلاميّ** وتضم 95 كتاباً .

3) ألفاظ الشعر العربيّ عبر عصوره المختلفة، وقد أُنجِزَ منها الكثيرُ سواءٌ في شكل أطاريح جامعيّة أم كُتُب منشورة أو مدوّنات مُرقمَنة، وأهمُّها مدوّنة: "الموسوعة الشعرية"، التي أصدرها المُجمَّع الثقافيّ بالإمارات. وقد فَرَغَت جمعيّة المعجمية العربية بتونس من وضع قاموس ألفاظ العصر الجاهلي المُستخرَج من دواوين شعراء هذا العصر.

4) مجموعة كبيرة من أُمهات القواميس اللغويّة القديمة والحديثة التي تمَّت حوسَبتُها ونشرُها على أوسع نطاق، وتتضمن العربيّة القديمة والمتوسطة والمعاصرة، مثل: لسان العرب، والقاموس المحيط، ومقاييس اللغة، والمجمل في اللغة، وتاج العروس، والمعجم الوسيط، ومعجم اللغة العربيّة المعاصرة، والمنجد في اللغة العربيّة المعاصرة، ومعجم الغنيّ، وعدد من القواميس المدرسيّة والوظيفية... وغيرها).

5) ألفاظ العلوم المختلفة ومُصطلحاتُها، وخاصة العلوم العربيّة الإسلاميّة: التاريخ والأدب، والثقافة، والفقه، والنقد، والبلاغة، والتفسير، والقراءات القرآنية، والأصول، والنحو، والصرف... وغيرها). وقد نُشِر منها الكثيرُ في مدوَّنات مُرَقمنة وكُتب ورقيّة. وبعضُها عبارة عن رسائل وأطاريح جامعيّة تحتفظ بها مكتباتُ الجامعات ومراكزُ البحوث في كل أرجاء العالم في البلاد العربيّة والإسلاميّة والأوروبيّة وغيرها. وأَعدَّ منها معهدُ الدراسات المصطلحيّة، ومعهد البحوث والدراسات العلميّة (مبدع)، وكلاهما بفاس، عدداً آخر يُستفادُ منه.

فهذه المجموعات المعجميّة المتوفِّرة، يمكن اعتبارُها النواةَ الأساسية لمدونة قاموسنا التاريخيّ، فينبغي الإسراعُ بتفريغها وتجميعِها في بنك معجميّ مركزيّ، بعد مراجعتها وتدقيقها علميّاً، ومنها يتمُّ الانطلاقُ نحو إضافة مدوَّنات أخرى.

5 ـ المعلومات المطلوبة في كل مدخل معجمي :

ـ معلومات صوتية (كيفية نطق الكلمة : إن اقتضى الأمرُ ذلك : هذا : هاذا / الله : اللاهُ / اللَّهُمَّ : اللاهُمَّ / عَمرُو : عَمْرُ..) ـ معلومات عن المقولة النحوية لكل كلمة (اسم عام ـ اسم خاص ـ فعل ـ صفة ـ أداة ـ ظرف ..الخ) ـ جنس الكلمة (مؤنث، مذكر) ـ عددها (مفرد ـ مثنّى ـ جمع ـ جمع الجموع ـ جمع التكسير ـ اسم الجمع ـ اسم الجنس ...) ـ معلومات صرفيّة واشتقاقيّة (تصغير الكلمات غير القياسية ـ نسبتُها ـ إعلالها ـ إبدالها ...) ـ تأثيل الكلمة (عربية أو معرَّبة ـ لغتها الأصلية إن عرفت ـ رحلتُها من لغة إلى أخرى ...) ـ تاريخ ميلاد الكلمة إن عُرفَ بالتحديد أو التقدير ـ تطور صيغتها الصوتية والإملائية ـ ما يطرأ على الكلمة من تحويل وتغيير بالقلب أو الإبدال أو الإعلال أو الإدغام أو النحت أو الاستعمال الخطإ ـ تطور دلالاتها حسب الأزمنة والأمكنة والسياقات ومجالات الاستخدام من حقل إلى آخر، مع وضع تواريخ لذلك ما أمكن ـ التحول الدلالي الذي يطرأ على الكلمة في الاستعمال اللَّهَجيّ والعاميّ ـ أمثلة على استعمالاتها في سياقاتها المختلفة مأخوذة من كبار الكتّاب ـ ذكر الكلمة مع مُلازِماتها في الاستعمال.

ـ يؤرَّخ للكلمة أو المعنى أو الصيغة بتاريخ وجودها في أقدم نصٍّ مكتوب ظهَرَت فيه، أو تاريخ وفاة مؤلّفه أو الفترة التي عاش فيها إلى أن يثبُت العَكسُ ـ وإن لم يكن هذا النصُّ يَعكِسَ بدايةَ استعمال الكلمة أو المعنى على وجه الدقة.

ـ تقديم تعريفات مركَّزة ومختصرة للمداخل وفروعها. مع التأريخ لدخول كل معنى.

6 ـ ترتيب المداخل والمعلومات والمعاني وتنسيق مكوِّنات المادة المعجميّة

ـ ترتيب المداخل الكبرى (وهي الجذور) ترتيباً اشتقاقياً أولا وألفبائيًا ثانيا، إذا كانت عربية الأصل، وحسب صورتها الكتابيّة إن كانت أعجميّة. وهذا يقتضي ردَّ كل ألفاظ القاموس إلى أصولها الاشتقاقيّة.

ـ ترتب المداخل الفرعيّة (المُشتقّات المُكوِّنة للعائلة اللفظيّة الواحدة) فيما بينها ترتيباً ألفبائياً وفق طريقة المعجم الوسيط من غير مراعاة السَّبق التاريخيّ لكلمة من الكلمات. فهذا أسهل وأيسر على القارئ المتعوِّد على القواميس اللغويّة العامة.

ـ استعمال نظام الإحالات لتسهيل العثور على الكلمة أمام القارئ (فكلمة مثل : «مناورة » تذكر في مكانها الصحيح وهو (م ن ا ور ة) لكن يجب أن تُذكر مرة أخرى دون شرح في مدخل (ن ور) وهناك يُحال على موقعها الصحيح وهو (م ن ا ور ة). وكلمة «قِنطار» تُرتَّب في (ق ن ط ا ر) باعتبارها كلمة أعجميّة، ثم تذكر تحت مدخل (ق ط ر) دون شرح، ويُحال هناك على مكانها الصحيح من القاموس. وإذا اعتبرنا أن كلمة (دشيش) متحوّلة عن (جشيش) فينبغي حينَها ترتيبها تحت مدخل (ج ش ش) وهناك تُشرَح ويُذكَر ما اعتراها من تحول صوتيّ، ثم تُذكر تحت مدخل (د ش ش) (مجرد ذكر) ويُحال على شرحها في (ج ش ش).

ـ تُرتَّب معاني الكلمات ترتيباً منطقيّاً وتاريخيّاً في الوقت ذلك، فيُقدَّم المعنى العام على المعنى الخاص، والحديث والأكثر شيوعًا على المعاني القديمة، والمعاني المحسوسة أو الأصليّة على المعاني المجازيّة والفرعيّة، ويُتبَعُ ذلك بذكر معانيها الاصطلاحية والتِّقنية في مختلف العلوم والمجالات، ويُختَم بمعانيها المحلّية كاستعمال كلمات: (ظهير ومخزن، ومَنصوريّة، ودَوَّار..) مثلاً ـ المُستخدمة في المغرب على التوالي بمعنى : المرسوم السلطانيّ، والإدارة أو السلطة العليا، ونوع من الألبسة الفضفاضة، وتجمُّع سَكَني بدَوي، صغير.

ـ يمكن وضع شبكة لتفرُّع المعاني بعضها عن بعض. وعلى أساسها يتمُّ ترتيبُها فيما بينها، وهذا مشروط بالتأكد من صحة هذا التفريع وتقديم ما يكفي من الأدلة على صحته.

ـ 4 ـ

مقترَحات:

ـ إنشاء مجلة علمية محكَّمة مختصَّة في نسختين ورقية ورَقمية، لنشر الجديد من البحوث النظرية والتطبيقية المتعلقة بالتأريخ لألفاظ المعجم العربيّ بشكل مستمرّ. وخاصة ما يُنجِزُه الباحثون من تأريخ لبعض كلمات من المعجم العربيّ، أو ما يضعونه من قواميس جُزئية بألفاظ بعض الكُتّاب أو الشعراء قُدامى ومُحدَثين، أو قواميس تاريخيّة لعصر أو فترة أو مرحلة معيَّنة أو عِلمٍ من العلوم أو حَقلٍ من الحُقول. ويجب تشجيع العلماء والباحثين على طَرق هذا النوع من التأليف.

ـ نشر الكتب والبحوث العلميّة النظريّة والتطبيقيّة والقواميس اللغويّة التي تدخل في نطاق المشروع وتخدُم أهدافَه وغايتَه.

ـ إنشاء موسوعة إلكترونيّة عربيّة على طريقة (ويكيبيديا الحرة)، يُحرِّر موادَّها متطوِّعون من مختلف أنحاء العالَم. وسوف تساعدُ الموادُّ المنشورة في هذه الموسوعة الشاملة على توفير الكثير من المواد والمعلومات المُحتاج إليها في إنجاز القاموس العربيّ التاريخيّ.

ـ الإسراع بإنجاز مشروع «ذخيرة اللغة العربيّة» الذي تبنَّته الجامعة العربيّة، وتقديم الدَّعم الماديّ والمعنويّ والعلميّ لإخراجه للوجود.

ـ استنهاض هِمَم الباحثين المهتمين والمختصين وتشجيعهم على الإسهام ببحوثهم في إنجاز مشروع القاموس التاريخيّ.

ـ دعوة كل الباحثين والجامعيّين المشتغلين بتحقيق كتب التراث إلى ضرورة الاهتمام بصنع فهارس فنّية بالألفاظ اللغويّة ذات الخصوصيّة المتضَمَّنة في النصوص المحقَّقة. على أن تقوم الهيئة العلميّة المشرفة على مشروع القاموس

التاريخيّ بوضع نموذج للطريقة التي توضَع بها فهارسُ ألفاظ النصوص المُحقَّقة، ثم يتمُّ تعميمُه للاستفادة منه والاستِرشاد به.

ـ ضرورة أن تعمل اللجنة على الاتصال بكل الجامعات العربيّة ومراكز البحث العامة والخاصة التي تمَّ فيها إنجاز رسائل وأطاريح جامعيّة لها صلة بمجال التأريخ المعجميّ، وخاصة المتعلقة بالمصطلحات والألفاظ الفنيّة وغيرها من مفردات الكتاب والشعراء والأدباء والمؤلّفات المختلفة، وأن تعمل على تصوير هذه الأعمال أو الحصول على نسخ منها للاستفادة منها في الموضوع.

ـ الاستعانة ببعض المنظَّمات الكبرى مثل منظمة الإيسيسكو ومنظمة الأليكسو، ومنظمة اليونسكو، وبعض الجمعيّات الخيريّة الكبرى مثل مؤسسة الشيخ زايد، وبعض المراكز الثقافيّة الكبيرة مثل مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنيّة، على إنجاز المشروع في شقه الماديّ واللوجيستي.

ـ يمكن إنشاء وقفيّة خاصّة تُسهِم في تكوينها دولٌ وجمعيّات وأفراد لتمويل المشروع.